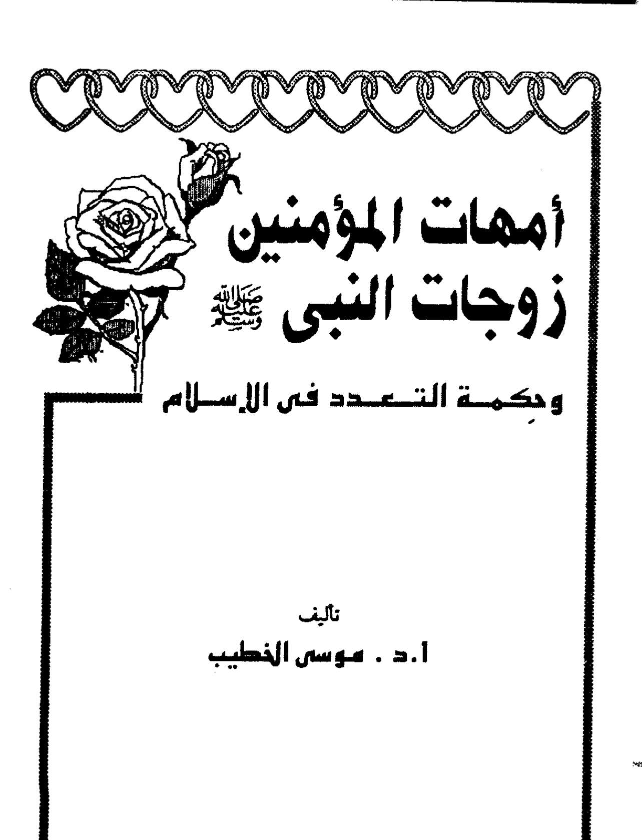
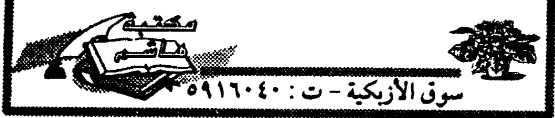


أمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ

وحكمة التعدد فى الإسلام

تأليف

أ.د. موسى الخطيب



سوق الأزبكية - ت : ٥٩١٦٠٤٠

الطبعة الأولى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

رقم ٤٥٩٩/٢٠٠١

الترقيم الدولى I.S.B.N.

مكتبة هاشم سوق الكتاب الجديد

بالعتبة بجوار مرور العتبة

ت: ٥٩١٦٠٤٠

طبع بمطبعة دار الندى

٣٧ ش الحسينى - منشية ناصر

ت: ٥١٠٥٤٧٤ - محمول ٠١٢/٣٥٧٨٨٤١



سبحانك اللهم لا نحـصي ثناءً عليك ، وهبت الإنسان نعمة العقل ، وخـصصته بهـذا الفضل ، فعرفك به كل العـرفان، وآمن بك حق الإيمان إلا من فسـدت فطرته ، وكتـبت شقوته . وحـمداً لك اللهم أن هديتنا إلى توحـيدك ، فكنا في المؤمنين من عبـيدك ، نرجوا ثوابك ونخشى عقابك ، ونبتغي إليك الوسيلة ، ونسلك إلى هداك سبيله .

ثم الصلاة أزكى الصـلاة ، والسلام أتم السـلام ، على نبيك الأكرم ، ورسـولك الأعظم ، مصطفاك لإبلاغ الرسـالة ، وإخراج الناس من الضـلالة ، نبراس الحق ، وإمـام الخلق ، سيـد ولد آدم محمد ﷺ .

أمـا بعـد : فإن الإنسان ليجيش صـدره بالمشاعر والأحاسيس وهو يسطر هذه الكلمات عن بيت النبوة ، وما أدرانا ببيت النبوة ، إنه بيت رسـول الله ﷺ بـيت ترقـبـه السـمـاء بالعـون ، وتمطره بالوحي، وتحفه بالعناية، وتزوره الملائكة في كل حين ، وفي جنباته يتنزل الروح الأمين ، وتُتلى آيات الذكـر المبين ، وتتـوارد في حناياه أشعة النور الأسنى ، وتصعد من رحـباته الدعوات والابتهالات إلى الأفق الأعلى ، وتشمل كل من فيه نفحات الرضوان ، وتغمر أهله

بالبركات والبر والإحسان .

وفي هذا البحث الذي بين أيدينا سوف نتحدث بعون الله تعالى وتوفيقه عن هؤلاء الزوجات اللاتي كرمهن الله من بين النساء فجعلهن أزواجًا لخير خلق الله قاطبة ، وصفوته من عباده ، محمد ﷺ ، والذي بفضله أعطاهن الله شرفًا لم تنله غيرهن من النساء الأخريات ، قال تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣] .

ولقد جعلهن الله في مكان القدوة بالنسبة لغيرهن فلابد من أن يكن على غاية مُثلى من الأدب وحُسْن الأخلاق ورفعة السلوك لتتحقق هذه القدوة، ومن أولى منهن بذلك، وهن الملاصقات لسيد الخلق الذي يضع التشريع للناس بهذه القدوة، وقد جعلهن الله أمهات المؤمنين ، والأم يسير على هديها أبناؤها ، ويهتدي بفعلها أولادها وأحفادها وكان النبي ﷺ أكرم زوج حين يكون في بيته يكون في مهنة أهله ، وحياته ﷺ في بيته تبدو رائعة في إنسانيتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلاً ذا قلب وعاطفة ووجدان[1]، ولم يحاول إلا في حالات الضرورة القصوى أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير ، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سويّ

(١) وانظر كتاب السمط الثمين للمحب الطبري ص ٨ - ١١ .

الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالاً ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف .

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات بأنهن كُنَّ دائمًا في حياة المصطفى ﷺ يصحبنه حين يخرج في مشاهده ومغازيه، ويهيئن له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الثقيل، واحتمال ما لقي في سبيل دعوته الخالدة .

ولقد أكثر أعداء الإسلام الكلام حول زواج النبي ﷺ وتعدده مُتخذين من ذلك حجة للنيل من الإسلام ورسوله ﷺ ولكنهم كانوا جدّ واهمين ! فالتعدد نظام قديم تفرضه دواعي الفطرة السويّة، ويقرّه الذوق السليم ، ولم يكن التعدد بحال من اختراع محمد كما زعم المستشرقون[1] .

ومن يستلهم التاريخ الإنساني يجده قد شاع قبل محمد ﷺ بأزمان ، ولم يكن محمد ﷺ بدعًا بين الرسل الذين تزوجوا أكثر من واحدة ، ولكنه كان واحدًا منهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد : ٣٨] . ولقد خُيِّر ﷺ بين أن يكون ملكًا نبيًا أو عبدًا نبيًا ، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً !

إنه بشر . . فيه غرائزهم وميولهم الفطرية ، لكنه في الكمال الإنساني والأدب والأخلاق غاية لا تُدرك ،فإذا عاب بعض الجهلاء، أو الموتورين والحاقدين عليه زواجه فإنما هم يعيبون على بشر أن

(١) قصة الحضارة : ول ديورانت : ٧٠٨

يتكيف مع غرائزه بشكل سليم ، وبوحي إلهي وتدبير سماوي عظيم ، وإن مما يفخر به الإسلام أنه لم يدعُ إلى إماتة الغرائز بل إلى تنظيمها وضبطها وتوجيهها الوجهة الصالحة .

وما تزوج عليه السلام بواحدة من أمهات المؤمنين لما وُصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والخوف على بعضهن من المهانة هي الباعث الأكبر في زواجه بهن ، ومعظمهن كُنَّ أرامل فقدن الأزواج أو الأولياء ، وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله ﷺ[1] .

لقد ابتغى ﷺ من الزواج بعد وفاة السيدة خديجة ، وذلك أنه كان يعمد حينًا إلى أن يزيد القريب قرابة ، وأن يضيف إلى أحبائه محبة ، وإلى المخلص لله ورسوله إخلاصًا .

وكان يتوخى تارة أن يستكثر من الأصهار ليناصروه ويؤازروه في نشر دين الله ، في مجتمع يعتبر المصاهرة صلة حميمة تستوجب النُصرة والوفاء .

ومن هنا يظهر لنا أن زواج النبي ﷺ كان للدين لا للدنيا ، وكان للحكمة لا للهوى ، ولتوطيد الدعوة ونشرها وتقويتها ، لا للمتعة أو التباهي والاستكثار .

وليس من شك في أن زوجات الرسول ﷺ أفدن الإسلام بكثير من الحقائق الوثيقة الصلة بالدين ، فقد أخبرن عن سلوك النبي ﷺ وأعماله التي لم يرها غير زوجاته ، وهن اللاتي كُنَّ

---

(١) وانظر كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد .

منابع التشريع الإسلامي المستنبط من أحوال لا يعرفها غير النساء ، ولبعضهن آراء في الفقه وأسباب نزول بعض الآيات القرآنية الكريمة ولا عجب في هذا فقد كن حريصات أشد الحرص على تطبيق قول الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

وقد روى الثقات عنهن كثيرًا من الأحاديث الشريفة(١) .

ولو أننا نظرنا إلى حياة الأمهات الطاهرات - رضي الله عنهن - في بيت النبي ﷺ لوجدناها على غاية من البساطة والفاقة ، فالمساكن صغيرة ، وغالب القوت التمر وخبز الشعير والماء ، وقد يمر الهلال والهلالين ولا يوقد في بيوتهن نار لطبخ الطعام .

إنها حياة عفة وتقشف وطهارة ، حياة علم وذكر وقرآن وعبادة .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

صلوات الله وسلامه على النبي الأمين ، ورضي الله عن أمهات المؤمنين .

---

(١) وانظر : لماذا عدّد النبي زوجاته ص ٥٣ وما بعدها جـ ١ ، د. أحمد الحوفي ط . نهضة مصر .

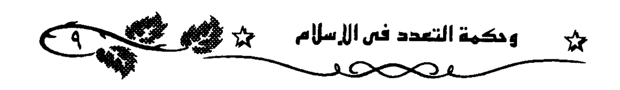
وإذ نقـدم للقـراء هذا البحـث فإننا نأمـل أن ينفع الله به من يطلع عليـه ، وأن يعتز كـل مسلم ومسلـمة بدينه ويُرضي ربه فـيه ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

[آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤] .

المؤلف

أ . د . موسى الخطيب





★ لمحة من حياة الأمين محمد ﷺ قبل البعثة ★

☆ مولده وشرف نسبه :

ولد ﷺ في صباح الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل المشهور، أو صباح اليوم التاسع من هذا الشهر سنة ٥٧١ للميلاد[١]، وكان مولده بمكة أشرف البلاد وأكرمها على الله سبحانه وتعالى، فهي بلد بركاتها نامية، وموارد فضائلها طامية وأركان بيتها بالأمن مأهولة ، وأدعية الطائف بكعبتها مقبولة .

وهو ﷺ دعوة أبيه إبراهيم ، وبشارة عيسى عليهما الصلاة والتسليم ، وصفوة سلالة قريش وصميمها ، ونخبة بني هاشم راحلها ومقيمها ، وأشرف العرب بدوًا وحضرًا ، وأفضلهم بيتًا ، وأعزهم نفرًا .

لم يزل ﷺ ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش في الجاهلية عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، ثم إلى أبيه عبد الله والد المصطفى أشرف الناس نسبًا ، عجمًا وعربًا ، فهو ذو نسب زكي : إبراهيم خليل الله دعامه ، وإسماعيل سنامه ، وكنانة زمامه ، وقريش نظامه ، وهاشم تمامه ، اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل ؛ لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليل رافع قواعد البيت إسماعيل ﷺ واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، ومن بني كنانة قريشًا المعروف بالشرف

(١) وهو ما حققه المرحوم العالم الجليل محمود باشا الفلكي .

والمكانة ، واصطفى مـن قريش بـني هاشم ، ومن بني هاشم سـر السراة أبا القاسم ، وإلى ذلك يشـير قوله ﷺ : « **إن الله اصـطفى من ولد إبراهـيم إسـمـاعـيل ، واصطفى من إسـمـاعـيل كنانة ، واصطفـى من كنانـة قـريشًا ، واصطفـى من قـريش بنـي هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيـار من خيار من خيار** » . وفـي هذا يقول عمه أبو طالب :

إذا اجتمـعت يومًا قريش لمعـشر فعبد مناف سـرّها وصميمـهـا
وإذا اجتمعت أنساب عبد منافها ففي هاشم أشـرافها وقديمهـا
وإن فخرت يومـًا فإن محـمدًا هو المصطفى من سرها وكريمهـا

ولا غرو ! فلم يكن في آبائه مسترذل ولا مستبذل ، بل كلهم سادة قادة .

☆ نشأته :

نشأ رسول الله ﷺ والله يحرسـه ويرعاه ويحفظه من أدناس الجاهلية ، لما يريد من كرامته ورسالته ، **فجعله أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا** ، وأكرمهم حسـبًا ، **وأعظمهم جوارًا** ، **وأرجحهم حلمًا** ، وأصدقـهم قولاً ، **وأعظمـهم أمانة وأبعـدهم عن الفُحش** حتى عُرِف بين أهل مكة وهـو في ريعان شبـابه بالصادق الأمين ، لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، ولأنهم لم يشاهدوا نشأة كعجـيب نشأته ، **فقد ملك عليهم مـشاعـرهم** بصبـره وحلمه ، ووفـائه وزهده ، وجوده ونجـدته ، وصدق لهجته ، وكرم عشرته ، وتواضعه وعلمه ، وعفوه وثباته .

عاش بين قومه ﷺ أربعين سنة قبل البـعثة ، وهي الفترة التي

فيها قوة الصبا ، وثورة الشباب ، وفورة الرجولة ، فكان المثل الأعلى في الاستقامة والعفة والطهر والشرف ، ومكارم الأخلاق .
مات أبوه وهو لم يزل جنينًا في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو ما زال طفلاً لا يتجاوز عمره ست سنين ، تاركة إياه لكفالة جده عبد المطلب ، سيد قريش وقتئذ ، ومات جده وهو ابن ثماني سنين ، فشمله عمه أبو طالب بعطفه وتولاه برعايته حتى بلغ مبلغ الشباب.

لم يكن محمد ﷺ في نشأته جاريًا على المألوف في الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون في بيئتهم ، ولو جرى الأمر على ذلك لشارك - حاشاه - قومه في تعظيم الأصنام وعبادتها ، ولا نغمس - عصمة الله - في ضلالات الوثنية وأوهامها ، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته ، فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس من جميل الصفات وحميد الخصال : لم يسجد لصنم من الأصنام ، ولم يشارك قومه في عيد من أعيادها ، ولم يذق لحوم قرابينها ، ولا عجب فقد حدّث عن نفسه : أدبني ربي فأحسن تأديبي .

★ مظاهر الكمال المحمدي قبل البعثة ★

إن الفترة التي قضاها الحبيب محمد ﷺ من أيام طفولته إلى يوم مبعثه كانت حقًا زاخرة بمظاهر الكمالات المحمدية ، وكلها دلائل لنبوته ، وآيات كمالاته ، وها نحن نستعرض مع القارئ الكريم طرفًا منها طلبًا لكمال محبته ، واليقين في الإيمان به ﷺ .

وأول تلك المظاهر الكمالية : الاستسقاء به ﷺ وهو طفل لم يبلغ بعد ، فقد ذكر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في مختصره أن ابن عساكر روى عن جُلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قُزعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق ، وانفجر الوادي ، وأخصب النادي والبادي ، وفي هذا قال أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

فهذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب محمد ﷺ،وهو مظهر من مظاهر الكمال، إذ ألهم الله تعالى أبا طالب أن يستسقي به ﷺ وهو طفل، فيأخذه ويأتي به إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها ويرفع الغلام بين يديه ، ولسان حاله يقول : اسقنا ربنا فقد توسلنا(٢) إليك بهذا الغلام المبارك . فيسقيهم الله تعالى حتى يجري واديهم وتخضب أراضيهم ، فكانت هذه من طلائع النبوة وتباشيرها .

وثاني هذه الكمالات المحمدية : أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط ، فيوم بناء الكعبة ، وقد أسهم محمد مع فتيان قريش في

---

(١) المساكين من الرجال والنساء وعصمتهم أي يمنعهم من الضياع ويسد حاجتهم .

(٢) توسلهم كان بحبهم وتعظيمهم له ﷺ فلهذا سقاهم الله تعالى .

حمل الأحجار على عواتقهم ، وشاهده عمه العباس وهو يسرع الخطى بما يحمل ، فيقول له : يا ابن أخي : لو جعلت إزارك على عاتقك كما يفعل صحبك لكان أصون لك . فيفعل محمد فينكشف ساقه، فيسقط مغشيًا عليه لساعته، وهو يصرخ : إزاري ، إزاري . فيضمه العباس إليه ويسأله عن شأنه ، فيخبره : لقد هتف بي هاتف من السماء : أن اشدد عليك إزارك يا محمد .

وثالث مظاهر الكمال : أنه ﷺ قد بغّض الله تعالى إليه الأوثان وكل أنواع الباطل التي كان يأتيها فتيان قريش ورجالاتها من الغناء وشُرب الخمر والقمار وسائر الملاهي، وقد أخبر ﷺ عن نفسه فقال: «لما نشأت بُغّضت إليّ الأوثان، وبُغّض إليّ الشعر، ولم أهم بشئ مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته ، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب. فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس كان لبعضهم ، فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا حر الشمس، ولم أقض شيئًا ثم عراني مثل ذلك مرة أخرى»[١] .

ورابع هذه المظاهر : هو تحكيم قريش له في أعظم خلاف لها كاد يفضي بها إلى الحرب والقتال ، ذلك بأن قريشًا كانت تبني الكعبة ، وقد قامت الخصومة بين القبائل وتنافسوا في رفع الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة واشتدت الخصومة حتى أنذرت

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافق عليه الذهبي .

بحرب شعواء ، ودام الخلاف أربع ليال أو خمسًا حتى أشار عليهم أسنٌ قريش يومئذ ، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي بأن يحكموا بينهم أول قادم فقبلوا ذلك ، وفي تلك اللحظة دخل عليهم محمد ﷺ فما أن رأوه مقبلاً حتى هتفوا جميعًا فرحين بمقدمه : هذا الصادق الأمين رضينا بحكمه . وعرضوا عليه الخلاف فهداه الله إلى الرأي الصائب الذي حسم الخلاف ، ومنع قيام الحرب ، خلع الأمين رداءه وفرشه على الأرض ، ثم وضع الحجر الشريف على ردائه ، ثم أمر ممثلي قبائل قريش أن يحمل كل منهم طرفًا من هذا الرداء حتى إذا بلغوا به مكان الحجر ، أخذه بيده الشريفة ووضعه في موضعه ، وبذلك حقنت دماء قريش ، وعادت المودة والألفة بين رجالات قريش ، فكان هذا الحكم والتحكيم أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل بعثته ﷺ .

وخامسها : اعتراف بحيرى الراهب بكماله ونبوته ووصيته عمه أبا طالب به ، وذلك أنه لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره ، صحب عمه أبا طالب في رحلة من رحلات الصيف إلى الشام ، وفي بُصرى من أرض الشام حطّ تجار قريش رحالهم بالقرب من صومعة راهب اسمه بحيرى ، اعتادوا أن ينزلوا بجواره ، فدعا القوم إلى وليمة على غير عادته حين رأى في القوم محمدًا وقد أظلته غمامة لا تتعداه تحفظه من حر الشمس ، وكان بحيرى ذا علم بالمسيحية والكتب الأولى ، فعلم أن لهذا الغلام شأنًا . فلما فرغ التجار من طعامهم وتفرقوا هنا وهناك ، أقبل الراهب بحيرى على محمد ، وسأله بحق اللات والعزى - جريًا على حلف العرب

بهما . فقال له رسول الله ﷺ : « لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغض شيئًا قط بغضهما » . فقال له : أسألك بالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه . فقال له ﷺ : « سل عما بدا لك » . فجعل بحيرى يسأله عن أشياء عن حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل النبي ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من نعوت الرسول وصفاته التي عرفها من الكتب السابقة ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، وكان مثل أثر المحجم ، ثم التفت الراهب بحيرى إلى أبي طالب فسأله عن الغلام فأخبره فعلم أنه النبي المنتظر ، وأمره أن يعود به إلى دياره مخافة أن يغتاله يهود إذا رأوه وعلموا به ، فقضى أبو طالب حاجته من تجارته بسرعة وعاد بابن أخيه مسرعًا إلى مكة .

وسادسها : حضوره ﷺ حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان التيمي في شهر ذي القعدة، وتعاهدوا (هاشم وزهرة وتيم) ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ، وفي هذا قال الزبير بن عبد المطلب عم النبي ﷺ :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يُقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه توافقوا وتعاقدوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وفي هذا الحلف يقول الرسول ﷺ في الإسلام : « **لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن به حُمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت** » .

وسابعها : ما روته أم أيمن قالت : « كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيدًا عند بوانة ، وهو صنم من أصنام مكة تعبده

قريش وتعظمه وتنسك - أي تذبح له - وتحلف عنده وتعكف عليه يومًا إلى الليل في كل سنة،فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم ابن أخيه محمدًا أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك ، قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا ، ولا تكثر لهم جمعًا فلم يزالوا به حتى ذهب معهم ، ثم رجع فزعًا مرعوبًا ، فقلن : ما دهاك ؟ فقال : أخشى أن يكون بي لمم - أي لمة ، وهي المس من الشيطان - فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟ فقال : إني كلما دنوت من صنم تمثل لي رجل أبيض يصيح بي : وراءك يا محمد ، لا تمسه . قالت : فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ » .

وفي ظل هذه العناية السامية التي أدبته ورعته وصاغته ، نشأ محمد ﷺ ، عفّ اليد ، كريمًا جوادًا نبيلاً ، رفيع الخلق ، طاهر الصفات ، عالي النفس ، محبًا محبوبًا ودودًا رحيمًا نقيًا لم تدنسه أخلاق الجاهلية،حتى لقبته قريش بالأمين وبالزكي وبالطاهر النقي.

☆ زهده ﷺ :

كان رسول الله ﷺ شديد الزهد في مُتَع الحياة الدنيا ، كما يتبين من دراسة حياته والإلمام بأخلاقه ، غير حافل بزينتها ، مكتفيًا منها بما يقيم الأود ، ويستر الجسد ، فما شبع ﷺ وآله منذ قدم المدينة من طعام بُر ثلاث ليال تباعًا حتى قُبض ، وما أكل صلوات الله وسلامه عليه وآله أكلتين في يوم واحد إلا إحداهما تمر ، وكان

فـراشه ﷺ من أدم حـشوه ليف ، ودخل عليـه عمـر بن الخطاب رضي الله عنه وهو مضطجع رحال[1] حصير ليس بينه وبينه فراش، وقد أثر في جنبه متكئًا على وسـادة من أدم حشوها ليف ، فقال له عـمر : يا رسـول الله ، ادع الله فليـوسّع على أمـتك فإن فـارس والروم قد وسّع عليهم وأعطوا الدنيـا وهم لا يعبدون الله . فجلس النبي ﷺ مـتكئًا فـقـال : « أوفي هذا أنـت يا ابن الخطاب ، إن أولئك قوم قد عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا » .

وقالـت عائشة رضـي الله عنها : لم يمتلئ جـوف النبي ﷺ شبـعًا ، ولم يبعث شـكوى لأحد ، وكانت الـفاقة أحب إلـيه من الغنى ، وإن كان ليظل جائعًا يتلوى طول حياته من الجوع فلا يمنعه صيـام يومه ، ولو شاء سـأل ربه جميع خـزائن الأرض ، وثمارها ورغد عيشها ، ولقـد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما أرى من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك ؟ فيقـول : يا عائشة ما لي وللدنيا إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على مـا هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكـرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدني أستحي إن ترفـهت في معيشتي أن يقصـر بي غدًا دونهم ، وما من شيء أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي . فـقالت : فما أقام بعد إلا شهرًا حتى توفي صلوات الله وسلامه عليه .

★★★

(١) الجلد المدبوغ أو مطلق جلد .

★ نساء النبي وحياة التقشف في بيته ﷺ ★

ولو أننا نظرنا إلى حياة أمهات المؤمنين ، زوجات النبي ﷺ في بيت الزوجية لوجدناهن على غاية من البساطة والفاقة، فالمساكن صغيرة ، وغالب القوت التمر وخبز الشعير والماء ، وقد يمر الهلال والهلالين ولا يوقد في بيت من بيوتهن نار لطبخ الطعام، ولندع الكلام إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصف لنا حياته البسيطة تقول : « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه من أدم حشوه ليف[(١)]»[(٢)] «كنا آل محمد نمكث شهرًا ما نستوقد بنار، إن هو (أي الطعام) إلا التمر والماء »[(٣)]، «وما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ»[(٤)] أي توفي.

ويروى عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله ﷺ يبيت الليل طاويًا هو وأهله لا يجدون عشاءً ، وكان أكثر خبزهم الشعير»[(٥)] .

وانظر إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها وهي تقول لأبيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين فتحت عليه الفتوح : البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، أو مُر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ألست تعلمين أن

---

(١) هو ليف النخل .
(٢) أخرجه مسلم والترمذي .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) أخرجه الترمذي .
(٥) أخرجه الترمذي .

أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ قالت : بلى . قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ وناشـدتك الله ، هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليهم خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية فثُنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها ، فلما استيقظ قال: منعتموني قيام الليل بهذه العباءة ، اثنوها باثنين كما كنتم تثنونها ؟ فما زال يقول حتى أبكاها ، وبكى عمر وانتحب[1] .

على أن هذا الزهد لم يكن عن ضيق يد أو فقر شديد كما يظن بعض الناس ، وإنما كان عزوفًا عن المباح مع القدرة عليه ، تهذيبًا للنفس ، وإيثارًا لنفع الآخرين ؛ لأن العزوف الناشئ عن عجز وضيق إضرار لا مندوحة عنه ، فلا يُسمى زهدًا . وقد شهدت زوجته عائشة رضي الله عنها بأنه لا نظير له في ضبط حواسه والتحكم في مشاعره ، والسيطرة على رغباته ، فقالت هذه الكلمة الجامعة : كان أملككم لإربه[2]. وقالت : « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم . فما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر إلا رمضان ، وما رأيته أكثر صيامًا منه في شعبان »[3] . وقالت رضي الله عنها : « كان

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي : ٤/ ١٩٢ .

(٢) الأرب: بفتح الهمزة وكسرها مع سكون الراء: الربوي والحاجة والعقل والدين.

(٣) فتح المبدي : ٢/ ١٦٠ .

علمه ديمة ، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق »[1] .

ولقد تطلعت أمهات المؤمنين إلى شيء من متع الحياة الدنيا وزينتها بعد غزوة الأحزاب ، حيث منّ الله على المؤمنين فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأصاب المسلمون كثيرًا من هذه النعم التي تمتعوا بها هم وأزواجهم وأولادهم ، فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والحشم ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يُعاملن بما تُعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم ، فيعاتبهن على هذا التطلع عتابًا شديدًا ، ويلقي عليهن درسًا قاسيًا ويهجرهن ردحًا من الزمن ، ثم يخبرهن الواحدة بعد الأخرى بين أن تبقى معه على شظف العيش وقسوة الحياة ، وبين أن يفارقها ويمتعها متاعًا جميلاً ، فيأبين إلا أن يعشن معه على شظف العيش، وقسوة الحياة ، مؤثرات الله ورسوله ، وراغبات فيما ادخره الله للمحسنات من عظيم الأجر ، وجزيل المثوبة .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] . ولما نزلت هاتان الآيتان بدأ النبي ﷺ بزوجه عائشة فقال : إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك ، وتلا عليها ما أنزل عليه من

(١) فتح المبدي : ٢/١٦٣ . ديمة : دائمًا .

الآيات . فقالت له : أفيك أستأمر أبويّ يا رسول الله ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . فلما اختارت عائشة رضي الله عنها الله ورسوله والدار الآخرة رؤي الفرح في وجه رسول الله ﷺ فتتابعن كلهن على ذلك ، فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة شكرهن الله جل وعز شأنه على ذلك فقال تعالى لنبيه : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

قال ابن كثير في تفسيره : « وذكر غير واحد من العلماء عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد وابن جريج وغيرهم أن هذه الآية ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ..﴾ نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاه عنهن على حُسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية »[1] .

هذه هي مظاهر الحياة التي كان يحياها النبي ﷺ ونساؤه ، ولو شاء النبي أن يأكل في صحاف من ذهب أو يتخذ القصور لفعل، وخصوصًا بعد أن استجابت له الجزيرة العربية وأصبح سيدها الأوحد وأصبح كل شعبها يدين له بالطاعة والمحبة . ونساؤه شاركنه هذه الحياة القاسية المحفوفة بالحرمان غير متأففات ولا متبرمات سوى تلك الحادثة سجلها القرآن ، وهي وثيقة دامغة لكل التهم التي يمكن أن تُثار في هذا المجال .

وإذا أردنا تقسيم حياة الرسول ﷺ الزوجية اتخذنا طريقة

(١) وانظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٠١ .

(محمد علي)[1] وهي أنه قسمها إلى أربع حلقات[2] :

(١) حياة الرسول ﷺ من الخامسة والعشرين من عمره ، وكان لا يزال عزبًا يحيا حياة هادئة تمتاز بالطهر والعفاف .

(٢) حياة الرسول ﷺ من الخامسة والعشرين إلى الخمسين ، وكان في هذه الفترة سعيدًا مع زوجه خديجة بنت خويلد ، ولم يفكر في غيرها قط إلا بعد وفاتها .

(٣) حياة الرسول ﷺ من الخمسين إلى الستين حين تزوج عدة نساء منهن العربيات وغير العربيات والقرشيات وغير القرشيات لأسباب اجتماعية وسياسية وإنسانية سنتعرض لها فيما بعد بإيجاز .

روت كتب التاريخ والسيرة أن زوجات النبي اللاتي عقد عليهن وبنى بهن إحدى عشرة امرأة هن على الترتيب كما يلي :

١ - خديجة بنت خويلد ٢ - سودة بنت زمعة
٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق ٤ - زينب بنت جحش الأسدية
٥ - حفصة بنت عمر بن الخطاب ٦ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان
٧ - أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة ٨ - جويرية بنت الحارث
٩ - صفية بنت حيي بن أخطب ١٠ - ميمونة بنت الحارث الهلالية
١١ - زينت بنت خزيمة .

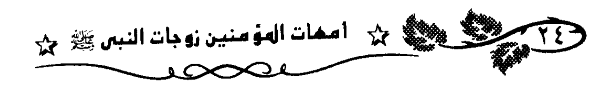
فمات قبله منهن ثنتان : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، وثنتان لم يدخل بهما : أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضًا فمتعها وردها إلى أهلها ، وغمرة بنت يزيد

(١) عالم مسلم هندي .
(٢) عن كتاب « عائشة أم المؤمنين » لمؤلفته زاهية مصطفى قدورة ص ١٠٣ .

الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ استعاذت منه ، فردها إلى أهلها بعد أن أداها حقها من وأما ملك يمينه فاثنتان : مارية بنت شمعون القبطية ، وريحانة بنت زيد القرظية . وأما اللاتي توفي عنهن فتسع زوجات هن : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة هند بنت أبي أمية ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ثم المصطلقية ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، والذي عليه كتب السيرة والمحققون من أهل العلم والحديث أن الرسول ﷺ جمع بين تسع نسوة في وقت واحد وهو المعتد به والمشهور ، وأن آية التخيير وهي قول الله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ** ... ﴾ الآية لما نزلت كان تحته ﷺ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وأربع من غير قريش وهن : زينب الأسدية ، وميمونة الهلالية ، وجويرية المصطلقية ، وصفية الخيبرية .

(٤) حياة الرسول ﷺ من الستين من عمره إلى وفاته ، ولم يتزوج خلالها تنفيذًا لأمر الله تعالى : ﴿ **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٢] . وهن التسع نسوة اللاتي سبق ذكرهن ، تكريمًا لهن من الله تعالى لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

★★★



★ حكمة التعدد في الإسلام ★

مما لا شك فيه أن الإسلام حين شرع التعدد ، كان ذلك لحكمة سامية ، ومصلحة عامة ، وضرورات اجتماعية وشخصية جاء ذكرها على ألسنة العلماء المفكرين ، فدفعتهم إلى الثناء على نظام التعدد وأحقيته وضرورته لتخليص المجتمعات البشرية من المشكلات الاجتماعية والمفاسد الخلقية ، فقد عرض « جروتيوس » العالم القانوني المشهور لموضوع تعدد الزوجات ، فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء في العهد القديم[1] . وقال الفيلسوف الألماني الشهير « شوبنهور » في رسالته « كلمة عن النساء » : « إن قوانين الزواج في أوربا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل ، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا ، ولا تعدم امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجًا يتكفل بشؤونها ، والمتزوجات عندنا نفر قليل ، وغيرهن لا يحصين عددًا ، تراهن بغير كفيل : بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة ، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى ، يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال ، وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار ، ففي مدينة (لندن) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية[2] ، سفك دم شرفهن على مذبح الزواج ضحية

(١) العقاد في كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ص١٧٨ط. الهلال.
(٢) توفي شوبنهور عام ١٨٦٠م .

الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الأوربية ، وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما آن لنا أن نعد بعد ذلك . تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره »[(1)]. ويقول « جوستاف لوبون » في كتابه «حضارة الإسلام»: «إن مبدأ نظام تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب، يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطًا، ويمنح المرأة احترامًا وسعادة لا تراهما في أوربا»[(2)].

ونقل الأستاذ العقاد عن طائفة من الفلاسفة الأوربيين ، وأراؤهم في التعدد ، فنقل عن الدكتور « ليبون » قوله : « إن القوانين الأوربية سوف تجيز التعدد » . وعن الأستاذ « أهرنفيل » قوله: «إن التعدد ضروري للمحافظة على بقاء السلالة الآرية »[(3)]. وقالت « آني بيزانت » زعيمة التيصوفية العالمية في كتابها « الأديان المنتشرة في الشرق»: « ومتى وزنا الأمور بقسطاس العدل المستقيم ، ظهر لنا أن تعدد الزوجات الإسلامي الذي يحفظ ويحمي ويغذي ويكسو النساء أرجح وزنًا من البغاء الأوربي ، الذي يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لمحض إشباع شهواته ، ثم يقذف بها في الشارع متى قضى منها أوطاره » .

لقد وقعت أزمة طاحنة في بلاد الانجليز وبلاد الغال بسبب زيادة عدد النساء على الرجال والتي قُدِّرت بملونين جاء على أثرها النداء العاجل لجريدة « الديلي ميل » الانجليزية الذائعة الصيت

(١) مصطفى الغلاميني في كتابه « الإسلام روح المدنية » ص ٢٢٤ .
(٢) جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » .
(٣) العقاد في كتابه « المرأة في القرآن الكريم » .

تعلنها صريحة: « إن إباحة تعدد الزوجات هي الطريقة الوحيدة للعلاج الناجع ، وليست مسألة الزوجة الواحدة إلا مسألة اعتقاد واتفاق ، وهي في الحق والواقع نتيجة نسبة عددية . ثم ذكرت أن نظرية المرأة الواحدة للرجل الواحد هي نظرية الأنسب والأوفق ، ولكن الاستمساك بها لا يُستحسن إلا عند التعادل العددي في الجنس ، أما إذا زاد عدد جنس النساء على العدد الآخر ، ولم تُتخذ التدابير في ذلك فلا مفر من حرب طاحنة تنشب بين الجنسين» ويقول « وستر مارك » العالم الثقة في تاريخ الزواج : « إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيرًا في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة »[1] . وأضاف : «إن ملوك النصارى كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة، فهذا «ديارمات» ملك أيرلنده كان له زوجتان وسريتان، وكان «لشارلمان» عدة زوجات وكثير من السراري ، وبعد ذلك بزمن كان « فيليب أوخاهيس » و «فريدريك وليام » الثاني البروسي يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة الوثريين ، وكان « مارتن لوثر » يتكلم في شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض ، فإنه لم يحرم بأمر من الله ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام - وهو مثل المسيحي الصادق - يحجم عنه إذ كان له زوجتان » . وذكر العقاد كذلك في كتابه «المرأة في القرآن الكريم » : « أن مجلس الفرنكيين بنورمبرج أصدر قرارًا يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين ، وذلك في سنة ١٥٦٠ م

(١) حقائق الإسلام للعقاد : ص ١٧٨ .

بعـد صلح وستـفاليـا ، وبعد أن تبين النقص في عـدد السكان من جـراء حـروب الثلاثـين » . ويقول : « بل ذهـبت بعض الطوائف المسيـحيـة إلى إيجاب تعـدد الزوجات ، فـفي سنة ١٥٣١ م نادى «اللامعدانيون » في مونستر صراحة : أن المسيحي ينبغي أن تكون له عـدة زوجـات ، ويعتـبـر « المورمـون » - وهم إحـدى الطوائف المسيـحيـة الفطرية كما هـو معلوم - أن تعدد الزوجـات نظام إلهي مقدس ». وقال « جورجي زيدان »[1]: « فالنصرانية ليس فيها نص صريح يمنع أتبـاعها من التـزوج بامرأتين فأكثـر ، ولو شاءوا لكان تعـدد الزوجات جـائزًا عندهم ، ولكن رؤسـاءها القـدماء وجـدوا الاكتـفاء بزوجة واحدة أقـرب لحفظ نظام العائلة واتحـادها ، وكان ذلك شائعًا في الدولة الرومانيـة ، فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار التزوج بغير امرأة حرامًا كما هو مشهور » .

والمسـيحيـة المعاصـرة تعتـرف بالتعـدد في إفريـقيا الـسوداء للإفـريقيين المسـيحـيين إلى غيـر حدود ، وقـد أكد هذه الحـقيـقة «نورجيه» في كـتابه « الإسلام والنصرانية في أواسط إفـريقية » في قوله : « ليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بأزواجهم (يقصد الإفريقيين) ما دامـوا نصارى يدينون بدين المسيح ، بل لا ضرر من ذلك ما دامت التـوراة وهي الكتاب الذي يجب على المسيـحيين أن يجعلوه أساس دينهم يبيح هذا التعدد ، فضلاً عن أن المسيح قد أقر ذلك في قـوله : « لا تظنوا أني جـئت لأهدم بل لأتمم » وأخـيـرًا

(١) عن كتاب « المرأة بين الفقه والقانون » للسباعي ص ٧٤ .

أعلنت الكنيسة رسميًا للإفريقيين النصارى أن يعددوا الزوجات إلى غير حد كما أن الشعوب الغربية النصرانية قد وجدت نفسها تجاه زيادة مطردة في عدد النساء على الرجال - وبخاصة بعد الحربين العالميتين - إزاء مشكلة اجتماعية خطيرة ، لا تزال تتخبط في إيجاد الحل المناسب ، وقد كان من بين الحلول التي برزت **إباحة تعدد الزوجات** . ففي عام ١٩٤٨ م عُقِد مؤتمر للشباب في « ميونيخ » بألمانيا ، وتم بحث مشكلة زيادة عدد النساء في ألمانيا أضعافًا مضاعفة عن عدد الرجال بعد الحرب ، وقد استعرضت مختلف الحلول لهذه المشكلة ، وكانت النتيجة أن أقرت اللجنة توصية المؤتمر بالمطالبة **بإباحة تعدد الزوجات لحل المشكلة** . وفي عام ١٩٤٩ تقدم أهالي « بون » عاصمة ألمانيا الاتحادية بطلب إلى السلطات المختصة يطلبون فيه أن ينص الدستور الألماني على **إباحة تعدد الزوجات** ونشرت الصحف منذ عشر سنوات تقريبًا أن الحكومة الألمانية أرسلت إلى مشيخة الأزهر تطلب منها نظام التعدد في الإسلام ؛ لأنها تفكر في الاستفادة منه كحل لمشكلة ازدياد النساء ، ثم أتبع ذلك وصول وفد من العلماء الألمان الذين قابلوا شيخ الأزهر لهذه الغاية »[1] .

وهذا الذي ذكرناه من ثناء المفكرين الغربيين غير المسلمين على نظام التعدد ، ما هو إلا غيض من فيض ، ومن أراد أن يتتبع آراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتربية في هذا المجال يجدها أكثر من

(١) أحكام الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى .

أن تُحصى ، وأعظم من أن تُستقصى ، ولابد أن يأتي اليوم الذي تثوب فيه البشرية إلى الإسلام ؛ لأنه دين الحق والفطرة ، تنزيلاً من رب العالمين قال تعالى : ﴿ **وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وتوضيحًا للبحث نحصر الحكمة من التعدد في الإسلام فيما يلي :

أولاً : الفائدة الاجتماعية : تظهر في حالتين لا نكران لوقوعهما :

(١) زيادة النساء على الرجال كما هو الشأن في بلدان شمال أوربا ، فقد دلت الإحصائيات في (فنلندا) أن من بين كل أربعة أطفال أو ثلاثة يولدون يكون واحد منهم ذكرًا ، والباقون إناثًا ومن ثم يصبح التعدد أمرًا واجبًا .

(٢) قلة عدد الرجال عن النساء كما هو الحال بعد الحروب الطاحنة أو الكوارث العامة ، وقد دخلت أوربا حربين عالميتين خلال ربع قرن ، هلك فيها ملايين الرجال ، وامتلأت المجتمعات بجموع غفيرة من النساء اللاتي فقدن عائلهن وأصبحن بلا زواج ، ومن ثم قامت الجمعيات النسائية في بعض بلاد أوربا - ولا سيما ألمانيا - تطالب بالسماح بتعدد الزوجات ، أو بتعبير آخر أخف وقعًا

على أسماع الغربيين وهو « إلزام الرجل بأن يتكفل امرأة أخرى غير زوجته » .

ثانيًا : المصلحة الشخصية : التي تعود على الشخص ذاته وهي كثيرة نجتزئ منها :

(أ) أن تكون الزوجة عقيمًا لا تلد ، والزوج يحب إنجاب الأولاد والذرية . يقول العقاد[1] : « وفي شرائع أهل الكتاب ، فلا حجر على تعدد الزوجات في شريعة قديمة سبقت قبل التوراة والإنجيل، ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة أو في الإنجيل، بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد ، ولم يرد في الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة ، وما ورد في الأناجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات والاستثناء في حالة واحدة ، وهي حالة الأسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاءً بأهون الشرور ، وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته إذا عقمت وثبت عليها العقم ، وحرّم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت عقم زوجها[2] ؛ لأن الأسرة لا يكون لها سيدان »[3] .

(ب) أن تصاب الزوجة بمرض مزمن أو مُعْدٍ أو منفر لا

(١) حقائق الإسلام : ص ١٧٧ .

(٢) ومن رحمة الإسلام بالمرأة في هذه الحالة أن أعطى للمرأة حق الاختيار أن تظل مع زوجها إذا رغبت دوام العشرة ولها حق الطلاق إذا رغبت في الذرية .

(٣) كتاب الزواج الأمثل Beno ConJugali .

يستطيع معه الزوج أن يعاشرها معاشرة الأزواج ، فله الحق إما أن يطلقها ، وإما أن يتزوج عليها أخرى ويبقيها في عصمته وتحت رعايته ، ولا يشك أحد في أن الحالة الثانية أكرم وأنبل ، وأضمن لسعادة الأسرة على السواء .

(جـ) أن يكون الرجل كثير الأسفار ، تتطلب إقامته في غير بلده الشهور ، ولا شك أن الزواج هنا من مصلحة الدين والأخلاق والمجتمع ، أما ما يذهب إليه ذوي النفوس الضعيفة من زواج المتعة فهو حرام شرعًا وهو من الزنى ، يوجب على مرتكبه من الجنسين عقوبة الزنى .

(د) أن يكون عند الرجل من القدرة الجنسية ما لا يكتفي معه بزوجته ، إما لشيخوختها ، أو لضعفها ، أو لكثرة الأيام التي لا تصلح فيها للمعاشرة الجنسية ، وهي أيام الحيض والحمل والنفاس والمرض وما أشبهها .

(هـ) أن يكون عند الرجل الرغبة الأكيدة والعزم الصادق في إنجاب الأولاد ، وتكثير الذرية ، ولديه القدرة على ذلك ، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن رسول الله ﷺ: «**تناكحوا تكثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة** » .

أما الحكمة الخلقية : فلأن الأمة التي يكون فيها عدد النساء أكثر من عدد الرجال يكون التعدد واجبًا أخلاقيًا واجتماعيًا على السواء ؛ لأن التعدد أفضل من تسكع النساء العازبات الزائدات عن الرجال في الطرقات ، أو أماكن الفجور ، لا عائل لهن ، ولا بيت يؤويهن ، ولا يوجد إنسان يحترم كرامة المرأة ، ويقدر مصلحة

المجتمع يفضل انتشار الدعارة على تعدد الزوجات ، ومنذ أوائل القرن الماضي تنبه المنصفون الغربيون إلى ما ينشأ من منع تعدد الزوجات من تشرد النساء ، وانتشار الفحشاء ، وكثرة الأولاد غير الشرعيين ، وأعلنوا أنه لا علاج لذلك إلا بالسماح بتعدد الزوجات، فقد نشرت جريدة (لاغوص ويكلي ريكورد) نقلاً عن جريدة (لندن تروث) مقالاً بقلم إحدى السيدات الانجليزيات ما يلي نصه « لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعمّ البلاء ، وقلّ الباحثون عن أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنًا ، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وإن شاركني فيه الناس جميعًا ، لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة ، ولله در العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ، ووصف له الدواء الكامل للشفاء ، وهو الإباحة للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة .

إن هذا التحديد بواحدة هو الذي جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجل ، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة » .

« أي ظن يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كلاً وعارًا وعالة على المجتمع ! فلو كان تعدد الزوجات مباحًا لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون ، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن . إن إباحة تعدد

الزوجات تجعل كل امرأة ربة بيت ، وأم أولاد شرعيين »[١] .

وتدلنا الإحصائيات التي تنشر فى أوربا وأمريكا عن ازدياد نسبة الأولاد غير الشرعيين زيادة مستمرة ، تقلق الباحثين الاجتماعيين ، وهؤلاء ليسوا إلا نتيجة عدم اقتصار الرجل الغربي على امرأة واحدة، وكثرة النساء اللواتي يمارسن البغاء . وحسمًا لهذه الأوضاع الاجتماعية المتردية ، أباحت ألمانيا أخيرًا نظام تعدد الزوجات حلا للأزمة »[٢]، وتسوية للمشكلة ، ولا يبعد أن تحذو أوربا وأمريكا حذو ألمانيا في إباحة التعدد ، لأن تعدد الحلائل خير من تعدد الخلائل[٣]، والزواج خير من الاتصال الحرام ، والفاحشة الممقوتة ، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يعقلون ؟!

« ومن حسنات التشريع في جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما تبقى من أضرارها ومن سوء التصرف فيها . . وكذلك صنع الإسلام فقيد التعدد بأربع ، واشترط فيه العدل ونبه الرجال إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه ، قال تعالى : **﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾** أن لا تعدلوا في صداق اليتيمات **﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾** أي ما حلّ لكم من النساء في حدود هذا العدد ، وتُحرم الزيادة على أربع **﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾** شرط الزيادة على

(١) مجلة المنار للسيد رشيد رضا ، المجلد الرابع ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .
(٢) ذكرت الخبر مجلة صوت الإسلام العدد / ٩٠ نقلاً عن صحيفة الأهرام القاهرية .
(٣) على حد تعبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله .

الواحـدة هو العدل في كل شيء حـتى النظرة (أمـا ما لا يسـتطيع الإنسان العدل فيـه كالميل النفسي فلا مؤاخذة فـيه) ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملـك** »(١) فقد كان حبه ﷺ للسيـدة عائشة رضي الله عنها أكثر من باقي زوجاته ، ولأن الميل القلبي (النفسي) لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيه ولو حرص ، لكونه خارجًا عن طاقة البشر ﴿ **أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ﴾ [النساء : ٣] أقرب ألا تتركوا النصفة والعدل في النفقة وسائر الحـقوق . وقال الإمـام الشافعي : أقـرب ألا تكثر عـيالكم فتفتقروا . وقال أبو حـاتم : « كان الشافعي أعلم بلغة العرب منا » وقـرأ طلحـة بن مصـرّف : « ألا تُعـيلوا » . والمعنى : ألا تكثـر عيـالكم وهي حجة الشافـعي . وهذا الفهم للإمام الشـافعي رضي الله عنه ومن ذهب مذهبـه يفيد ضمنًا اشتـراط القدرة على الإنفاق لمن أراد التعدد إلا أنه شرط ديانة لا شرط(٢) قضاء .

★ التعدد نظام قديم ★

أليس من العـجب العجـيب زعم رجـال الدين في العصـور الوسطى أن تعدد الزوجات نظام اخترعه محمد(٣) ؟

---

(١) رواه أصحاب السنن وابن حبان في صحيحه .

(٢) والمعنى أنه إذا كـان يعلم أنه لا يستطيع الإنفـاق على الزوجـة الثانيـة فلا يجوز له ديانةً أن يعدّد .

(٣) قصة الحضارة : ١/ ٧٠ ول ديورانت .

إن أصحـاب هذه الفرية لمخطئون خطأ فاحـشًا ، أو جاهلون جهـلا فاضـحًا ؛ لأن التعدد أسـبق من الإسلام بمئـات الأعوام . وذلك أن الأمم القديمة كانت كلها تمارس التعدد ، فالعبريون عددوا من عهد قديم ، والتوراة أباحت التعدد ولم تحدد العدد ، ثم حدده التلمود[١] ، وبلغ عدد نساء سليمان مائة امرأة[٢] ، وحدد الربانيون العدد بأربع ، مستدلين بأن يعقوب جمع أربع زوجات[٣] ، وما زال اليهود يعددون زوجـاتهم في أوربا إلى القرون الوسطى ، وما زالوا يمارسونه إلى اليوم في العالم الإسلامي[٤] . وكان مباحًا للأثيني أن يتزوج أي عدد من النساء، حتى لقد افتخر ديموسين بأن في عصمته ثلاث طبقـات منهن ؛ طبقـتان منها زوجـات شرعيـات وشبيـهات بالشرعـيات[٥] . وكان المصريون القدمـاء يعددون في عهد ديودور الصقلي ، وكـان نبلاؤهم يستـمتعـون - مع التعدد - بالإمـاء وما ملكت اليمين[٦] . وكانت تعاليم زرادشت تخول الفرس أن يعددوا زوجاتهم ، وأن يتـخذوا الحظايا والخليلات ، بدعوى أن الشـعوب المحاربة في حـاجة دائمة إلى الفـتيان ، ولهذا عـدد الفرس ، ولم

---

(١) حضارة العـرب : ٤٨٣ جوستاف لوبون ، وقصـة الحضارة : ١/ ٧٠ ول ديورانت ، والنظم الاجتماعية والسياسية : ٦٨ محمد جمعة .
(٢) سفر التثنية ، إصحاح : ١٧ ، وتاريخ الطبري : ١/ ٢٦٠ .
(٣) شعـار الخضـر في الأحكام الشرعيـة الإسرائيليـة للقرائين : ٨٣ ترجـمة وشرح مراد فرج .
(٤) النظم الاجتماعية والسياسية : ٦٨ محمد جمعة .
(٥) مركز المرأة في الإسلام : ٢٠ ، ٣٦ للسيد الأمير علي الهندي .
(٦) النظم الاجتماعية والسياسية : ٦٨ ، والحضارة المصرية القديمة جوستاف لوبون : ٧١ .

يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده[١] . كذلك عدد الرومان ، ويكفي أن نعلم أن الإمبراطور سيلا جمع خمس نساء ، وأن قيصر جمع أربعًا، وأن بومبي جمع أربعًا مثله[٢]. أما المسيحيون فقد عدد بعضهم كالإمبراطور قسطنطين وابنه[٣] ، بل إن الإمبراطور فلافيوس فالنتيان سنّ قانونًا يبيح التعدد ، أباح فيه لرعايا الدولة جميعًا أن يتزوجوا عدة زوجات إذا شاءوا، ولم يحتج الأساقفة ورؤساء الكنائس المسيحية، وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الميلادي[٤] . ومارس التعدد الأباطرة الذين خلفوا فالنتيان، واستمر العمل بقانونه إلى عصر جستنيان،حيث حظر التعدد،ولكنه لم ينجح في حظره ، إذ لم يخضع لحظره إلا قلة من المفكرين ، أما أكثر الشعب فلم يعيروه طاعة[٥] . على أن شعوبًا أخرى كانت تجرى على نظام التعدد ، كالهنود القدماء والميديين والبابليين والآشوريين[٦] .

فلا عجب في أن عدد العرب في العصر الجاهلي ، وشاع فيهم هذا النظام ، فمارسه من واتته مقدرته ، أو ألجأته إليه حاجة، أو توقع من ورائه أي خير . ويكفي أن نعلم أن المنذر بن الحارث ابن أبي جبلة الغساني الذي كان بطريقًا وحاميًا للكنيسة الشرقية

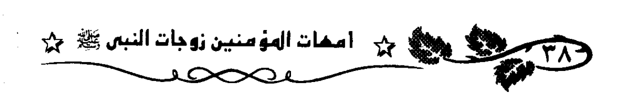
(١) قصة الحضارة الفارسية : ٥٨ ول ديورانت ، ومركز المرأة في الإسلام : ٤٤ ، وحضارة العرب ، جوستاف لوبون : ٤٨٣ .
(٢) باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام : ٧٤ .
(٣) مركز المرأة في الإسلام : ٤٢ .
(٤) تاريخ البابوات : ١/ ٢٥٥ .. Histoire des Papes I.P.225 .
(٥) مركز المرأة في الإسلام : ٤٢ .
(٦) مركز المرأة في الإسلام ، السيد أمير علي الهندي : ٣٤ .

تزوج نساء كثيرات ، وكذلك النعمان ملك الحيرة تزوج عدة نساء حتى بعد تنصره ، ويظهر أن الكنيسة لم تكن تبالي ذلك ما دام الأمراء غير متزوجين كنسيًا إلا بواحدة[١] . لهذا أشرق الإسلام وفي ثقيف - مثلا - رجال عند كل منهم عشر نسوة ، أسلم بعضهم ، مثل : غيلان بن سلمة وصفيان بن عبد الله ومسعود بن عامر ، فنزل كل منهم عن ست زوجات وأمسك أربعًا[٢] . وكان عند قيس بن الحارث ثماني نسوة ، وعند نوفل بن معاوية خمس ، فخيرهما النبي ﷺ في أربع[٣] . وقد كان عند عبد المطلب بن هاشم ست نسوة[٤] ،وعند أبي سفيان ست،وعند صفوان بن أمية مثلهن[٥] وكان المغيرة بن شعبة قد تزوج سبعين امرأة ، أو تسعًا وثمانين ، أو ثلاثًا وتسعين[٦] . ولهذا وجد أبو الحسن المدائني زادًا يؤلف منه كتابًا فيمن جمع أكثر من أربع[٧] .

وهذه اللمحة تكفي لإبطال ما زعمه بعض خصوم الإسلام من أن محمدًا ﷺ هو الذي شرع للناس تعدد الزوجات .

★★★

(١) أمراء غسان : ٣١ نولدكه .
(٢) المحبر : ٣٥٧ لابن حبيب ، ومجمع الأمثال : ١/ ٣٥ للميداني .
(٣) عيون المسائل الشرعية : ٥٦ علي حسب الله .
(٤) سيرة ابن هشام : ١/ ١١٩ .
(٥) الإصابة : ٨/ ١٣٩ لابن حجر العسقلاني .
(٦) كنز العمال : ٨/ ٢٨٨ ، والأغاني : ١٤/ ١٣٧ .
(٧) الفهرست لابن النديم : ١٠٢ ، ومعجم الأدباء لياقوت : ١٤/ ١٣٣ .



★ امهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ ★

☆ تفصيل وتعليل :

فلنشرع في تفصيل زواجه ﷺ مقرونًا ببيان الأسباب والملابسات والأهداف من كل زواج ، ليـنكشف الحق الذي لا مراء فيه .

١ - السيدة خديجة[1] :

ينطق تاريخ النبي ﷺ بأنه قضى أنضر سنوات شبابه وأشدها إغراء بالمتعة التي كانت ميسورة في مكة ، وعاش أعظم أيامه هدوءًا أو فراغًا لنفسه نزيهًا عفيفًا ، ولم يخطب ولم يتزوج إلى أن بلغ الخامسة والعشرين . فلو أنه ﷺ كان من رواد الاستمتاع كما يزعم المبطلون لانحرف قبل زواجه . ولو أنه كان ظامئًا إلى النساء لتعجل الزواج في سن مبكرة على عادة الشبان من قومه ومن أترابه . ولكنه بقي إلى الخامسة والعشرين حتى تاجر للسيدة خديجة بنت خويلد في مالها ، فأعجبتها أمانته وسيرته ، فخطبته لنفسها الزكية

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤/١٨١٧ ، ١٨٢٤ ، ١٨٢٥ ، ١٨٨٢ ، وأسد الغابة لابن الأثير : ٥/ ٤٣٤ والإصابة لابن حجر العسقلاني : ٨/ ٦٠ ، وفتح الباري : ٩/ ٢٨٥ وتاريخ الطبري : ٢/١٩٦ . وكانت السيدة خديجة ثيبًا وعمرها أربعين سنة وعاشت معه ﷺ خمس عشرة سنة قبل البعثة وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين ودفنت بالحجون بمكة وهي أول من آمن من النساء وكان عمرها يوم ماتت خمسًا وستين سنة . (المرجع السابق) .

وهي أول من تزوج ولم يتزوج غيرها حتى ماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكانت قبله عند عتيق بن عابد ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية ، ثم خلف عليها أبو هالة بن مالك أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم ، حليف بني عبد الدار ، فولدت له هند والحارث ابني أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة ، فأما هند فشهد أحدًا، وسكن البصرة ، وروى عنه الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأما الحارث فقتله أحد الكفار عند الركن اليماني. قيل: زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد، ويقال: أخوها عمرو بن خويلد. وقيل: بل عمها عمرو بن أمية ، وكان شيخًا كبيرًا وهو الصحيح، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت له كل أولاده إلا إبراهيم[1] ، وهي أول من آمن من النساء ، وكانت لرسول الله ﷺ وزير صدق على الإسلام ، على أن النبي ﷺ عاش مكتفيًا بالسيدة خديجة وحدها خمسًا وعشرين سنة لم يشرك معها ضرة، ولم يفكر في أن يضم إليها زوجة في مجتمع يجري على تعدد الزوجات ، وفي فترة من العمر هو فيها يقضي زهرة شبابه، وعنفوان رجولته ، هو فيها يستمتع بريعان القوة وهي تنحدر إلى الكبر والشيخوخة ، فلما افتقدها وعمرها أربع وستون سنة أو خمس وستون[2] حزن عليها حزنًا يليق بجلال

(١) رزق الله الزوجين الكريمين البنين والبنات فكان لهما من البنين : القاسم وبه كان يكنى ، وعبد الله (ويلقب بالطاهر والطيب) ، ومن البنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء والتي حفظ الله في نسلها ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام .

(٢) الاستيعاب ١٨١٨/٤ ، ١٨٢٥ ، وأسد الغابة : ٤٣٨/٥ .

النبوة وعظيم الوفاء . ولم يزل طيلة حياته وفيًا لها ، يعطر ذكراها بالثناء عليها في غير كتمان وعلى مسمع من زوجاته ، حتى إن السيدة عائشة قالت : ما غرت من امرأة مثل ما غِرت من خديجة؛ لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها ، حتى إنه كان يذبح الشاة فيتتبع صديقات خديجة يهديها إليهن . وقالت رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يومًا من الأيام، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزًا أبدلك الله خيرًا منها ؟ فغضب ﷺ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من الناس » . قالت السيدة عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسوء أبدًا . ويقول الكاتب الفرنسي «أتنيه دينيه» في كتابه رسول الله : « كان لخديجة في نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة فلم يُشرك معها غيرها طيلة حياتها ، ورغم أنه كان في ريعان شبابه فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغُري به . وإذا كانت قد فارقته فإن ذكراها دائمًا كانت على لسانه ، وكانت عائشة التي صارت زوج الرسول المفضلة تجد لذع الغيرة وتحس به في قسوة، ورغم جمال عائشة ، وما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة ، فإنه كان دائمًا يفضل عليهن خديجة ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجد على ظهر البسيطة ، أما الثلاث الأخريات

فهن آسية امرأة فرعون التي أنقذت موسى ، ومريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة ، وأثر خديجة في حياة الرسول ، لا يماثله إلا أثرها في حياة الإسلام وتاريخه »[1] فالسلام على أم المؤمنين خديجة الكبرى التي أقرأها ربها على لسان نبيه السلام ، وأعدّ لها في أعلى الجنان قصراً من لؤلؤ وقصب ، ثم السلام على خديجة أكمل النساء ، وخير نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة .

٢ - السيدة سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس[2] :

فلما ماتت خديجة تزوج النبي ﷺ سودة بنت زمعة ، وكانت قبله عند ابن عمها « السكران بن عمرو بن عبد شمس » ، وكانا من السابقين إلى الإسلام ، فلما اشتد إيذاء القرشيين له ولأمثاله هاجر بأهله إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، فلما بلغتهم أخبار تطمئنهم على دينهم في مكة عادت سودة مع زوجها ، ولكنه مات عقب وصوله وترك زوجته مهيضة الجناح معرضة لنكال أبيها المشرك، وكان المسلمون قلة في مكة ، وسياط قريش تلهب أجسادهم كل حين ، فكانَ الموقف يقتضي أن يضم رجل من المسلمين هذه الأرملة المهددة في دينها المطعونة في طمأنينتها ، المستوحشة بفقدان زوجها ، وكان الرسول يومئذ بغير زوجة ، فلما عرضت « خولة بنت حكيم » على رسول الله أمر سودة هذه أدرك

(١) وانظر كتاب سيدات أهل الجنة للمؤلف .

(٢) تزوجها النبي ﷺ قبل الهجرة بسنتين ، ولكنه لم يبن بها إلا في المدينة ، أي بعد موت السيدة خديجة بثلاث سنوات .

رسول الله أنه لا ينبغي أن يترك سودة لمحنتها ، أو يتخطاها فتزداد شماتة الكفار بها[1] ، فتزوجها لتجد في الزواج منه شرفًا وعزاءً وعاصمًا من النكال والردة ، ولتحل بين أبناء دينها الجديد في أرفع مكانة تصبو إليها المرأة المسلمة مكانة (أم المؤمنين)[2] ولم يخل هذا الزواج من استمالة قومها وتأليف قلوبهم ؛ لأنهم صاروا أصهار رسول الله ﷺ فهو إذًا زواج تكريم ومراعاة لصالح الإسلام ، لا زواج استمتاع واستكثار ، ولا ننسى أنها كانت امرأة متقدمة في السن ، بطيئة الحركة وبها حدة ، ولهذا قالت للنبي ﷺ : أنت في حِل من شأني ، وإنما أود أن أُحشر في زُمرة أزواجك ، وقد وهبت يومي لعائشة ، وقد أمسكها رسول الله ﷺ حتى توفي عنها مع سائر من توفي عنهن من زوجاته .

وعاشت سودة تعمل الخير ما قدرت عليه ، وتصنع المروءة ما استطاعت أن تصنع حتى وافاها أجلها في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الأرجح ، فلقيت ربها راضية مرضية .

٣ - أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق[3] :

وتزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة ، وهي بنت سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة ، وهي بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها ، زوجه إياها أبوها

---

(١) عبقرية محمد للعقاد : ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) وا محمداه - نظمي لوقا : ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) الاستيعاب : ٤/ ١٨٨١ ، والإصابة : ٨/ ١٣٩ ، والطبقات الكبرى : ٨/ ٤٥ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي : ١/ ١٦ ، وأُسْد الغابة : ٥/ ٥٠١ .

أبو بكر ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم[١] . وذكر ابن الأثير في كتابه الكامل : أن عائشة يوم زواجها كانت صغيرة بنت ست سنين[٢] ، ثم قال : إن رسول الله بنى بعائشة في المدينة وهي ابنة تسع سنين ، ومات عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة[٣] . والقصة - بهذا العرض - تفتح أبواب النقد ، وتثير الشبهات عند من يتصيدون مواطن الطعن في رسول الله ﷺ ، وينتهزون الفرص للحط من قدره فيما يكتبون ويتحدثون ، ومن ثم أطلق الطاعنون من المستشرقين لأقلامهم العنان في موضوع زواج الرسول عليه الصلاة والسلام من عائشة فقالوا : إن هذا الزواج انتهاك لحُرمة الطفولة ، واستجابة للوحشة الجنسية ، وعبث واضح من رجل كبير بطفلة في سن ست سنوات أو سبع يثير عاطفة السخط والاشمئزاز من هذا الرجل ، لكن إذا تُرك أمر السن هذا من غير ذكر ، وصار الأمر للعُرف والعادة وتقدير مقتضيات البيئة فمن السهل أن توجد المبررات التي لا تُثير لومًا ، ولا تفتح باب الشكوك والشبهات ، ومن التجني في الأحكام أن يوزن الحدث منفصلاً عن زمانه ومكانه وظروف بيئته . والآن صار لزامًا على كل باحث أو قارئ في موضوع زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة أن يعرف الأمور التالية :

أولاً : أن كتب السيرة التي قدّرت للسيدة عائشة تلك السن الصغيرة عند زواج النبي بها ، روت بجانب هذا التقدير أمرًا أجمع

(١) سيرة ابن هشام : ٤/ ٢٩٢ ذكر أزواجه ﷺ .
(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٠٩ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢١٠ .

الرواة على وقوعه ، وهو أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها من رسول الله إلى رجل آخر هو«جبير بن المطعم بن عدي» الذي ظل على دين قومه إلى السنة العاشرة للهجرة . فمتى خطبها المطعم بن عدي لابنه جبير ؟! ليس معقولاً أن يكون قد خطبها وأبو بكر مسلم وآل بيته مسلمون لأن مصاهرة غير المسلمين لا يقرها الإسلام فالغالب إذًا أن تكون هذه الخطبة قبل بعثة الرسول أي قبل ثلاثة عشر عامًا قضاها الرسول في مكة ، فإذا بنى بها الرسول في العام الثاني للهجرة تكون سنها إذ ذاك قد جاوزت الرابعة عشرة ، على فرض أن المطعم بن عدي خطبها لابنه في يوم مولدها ، وهذا بعيد كل البعد أن تُخطب البنت في يوم مولدها .

ثانيًا : أن « خولة بنت حكيم » زوج عثمان بن مظعون التي كانت تحمل همّ رسول الله ، وتديم التفكير في شأنه بعد وفاة السيدة خديجة حين ذهبت إلى النبي لتُخرجه من شجوه وأحزانه وتقول له: أفلا تزوجت يا رسول الله لتسلو بعض حُزنك ، وتؤنس وحشتك بعد خديجة ؟ فسألها رسول الله : من تريدين يا خولة ؟ فأجابته قائلة : سودة بنت زمعة ، أو عائشة بنت أبي بكر[1] .

والآن يستطيع القارئ أن يفهم أن خولة حين قدّمت عائشة مع سودة لرسول الله كانت تعلم وهي المرأة الكبيرة العالمة بأمور النساء أن كلتيهما تصلح للزواج من رسول الله ، ومعنى ذلك إذًا أن عائشة كانت في نمائها ونضوجها واضحة معالم الأنوثة في نظر

(١) الحقبة المثالية في الإسلام : د . إبراهيم علي شعوط ود . محمود محمد زياده ص : ١٦٦ .

خولة ، وهي العارفة بمآرب الرجال من النساء . كذلك نجد أن السيدة « أم رومان » والدة عائشة كان اغتباطها شديدًا عندما فُسخت خطبة عائشة من « جبير بن مطعم » ، وطغت بها الفرحة وزاد اغتباطها لما علمت أن رسول الله قبل زواجها ، وقالت لأبي بكر هذه ابنتك عائشة قد أذهب الله من طريقها جبيرًا وأهل جبير ، فادفعها إلى رسول الله تلقَ الخير والبركة[1] .

إن الأم حين تطلب لفتاتها الزواج تكون أعرف الناس بعلامات النضج في ابنتها ، وتُدرك ثورة الأنوثة في وليدتها ، فتبدأ تتشوق إلى يوم ترى فيه ابنتها وهي في زفتها وجلوتها عروس إلى فتى تحب أن يكون لابنتها مصدر سعادة ، يريها الحياة من نافذة الأسرة ، ويدخل بها الدنيا من باب الأمهات ، وقد تكون الفتاة في سن التاسعة أو العاشرة طفلة في عقلها وتفكيرها ، ولكنها بحكم بيئتها في بدنها امرأة كاملة الأنوثة تحنّ إلى الرجل ، وتتمنى لو يقدّر لها أن تتزوج .

كان زواج عائشة وهي في سنها المبكرة زواج كرامة وتكريم لأبي بكر صديق النبي الأول وحبيبه الأثير المقرب ، ورفيقه في هجرته ، وظهيره في جهاده ، ورفيقه الذي طالما بذل من نفسه ومن ماله لنصرة الإسلام ومؤازرة رسول الله ﷺ حتى استحق أن يكون أقرب الناس إلى نفسه ، وأن يكون بمثابة وزيره الأول ، كما كان يُراد به أيضًا توثيق الصلات بين تلك الفئة القليلة من المؤمنين بالله وسط غيابة الكفر العمياء .

(١) أمهات المؤمنين وأخوات الشهداء : وداد سكاكيني : ص ٤٠ .

وقد تزوج النبي ﷺ السيدة خديجة من قبل ، وكان له منها أولاد ، وصبر بعد موتها ثلاث سنوات ، فلا غضاضة في أن يتزوج بعدها .

على أنه ﷺ صاحب بيت ، ولابد للبيت من زوجة تدبر شؤونه ، وترعى مصالحه ، وتعده ليأوى إليه النبي ﷺ وهو صالح لمأواه ، وتزيده أُنسًا إلى أُنسه ، وتعطر بيت النبوة العظيم بشذى من رقة الأنوثة وحنانها ، وتحقق قوله تعالى في بيان بعض نعمه على عباده : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ .
[الروم : ٢١] .

وإذا كان آلاف من المسلمين والمسلمات يودون أن ينهضوا بخدمة بيت النبي ﷺ فإنهم لا يكفلون طمأنينة البيت وهدوءه وراحته ووقاره كما تكفله الزوجة ، ولا يستطيعون أن يحققوا ما جاء في الآية الكريمة من معاني السكن والمودة والرحمة . ثم إن معاشرة النبي ﷺ لزوجاته تتيح لهن أن يعرفن كثيرًا من التشريع والأحكام والحلال والحرام والمباح ، وتتيح لهن سماع كثير من أحاديثه وروايتها ، كما يتبين ذلك جليًا لمن يقرأ كتب الحديث المفصلة ، وكتب الفقه المبسوطة . كما أن وجود زوجة في بيت النبي ﷺ كان مشجعًا للنساء على أن يفدن إلى بيته كما يفد الرجال ليسألن عن شؤون دينهن كما يسأل الرجال عن شؤون دينهم ، ويسألن السيدة عائشة عما يتحرجن من سؤال النبي ﷺ عندما

يختص بالنساء . وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها ذكية سريعة الحفظ مشهورة برواية الحديث والتفقه في الدين ، ولهذا كان كبار الصحابة إذا أشكل عليهم أمر في الدين استفتوها فأفتتهم . قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا . وقال مسروق : رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض[١] .

وقال الذهبي : كانت من أكبر فقهاء الصحابة ، وكان الفقهاء من أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها[٢] . ولم يقتصر تفوقها على رواية الحديث وعلى الفقه فحسب ، بل كانت فصيحة اللسان، قوية البيان ، حافظة لكثير من القصائد ، حتى إن هشام بن عروة حدث عن أبيه أنه قال : ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة[٣] .

وحدث أبو الزناد فقال : إنه ما رأى أحدا أروى للشعر من عروة ، وإن عروة قيل له : ما أكثر روايتك ! فقال : وما روايتي في رواية عائشة ؛ ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا[٤] .

وقالوا : إنها كانت تروي القصيدة ستين بيتًا والقصيدة مائة

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨/ ٤٥، والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة رضي الله عنها على الصحابة : ٦١ ، والاستيعاب : ٤/ ١٨٨٣ .
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي : ١/ ١٦ .
(٣) الاستيعاب : ٤/ ١٨٨٣ ، والإصابة : ٨/ ١٤٠ ، وأسد الغابة : ٥/ ٥٠٤ ، وتهذيب التهذيب : ١٢/ ٣٥ .
(٤) الإصابة : ٨/ ١٤٠ ، والطبقات : ٨/ ٥٠ ، والاستيعاب : ٢/ ٧٦٥ .

بيت[١] وكانت لبقة حصيفة في الاستدلال بالشعر والتمثل به، وقد أسمعت النبي ﷺ بيتين من شعر أبي كبير الهذلي، فسر منها وقبّل ما بين عينيها[٢]. فهي إذًا قديرة على حفظ الأحاديث النبوية واستيعابها وفهمها وقديرة على حفظ كثير من الأخبار الخاصة بحياة النبي ﷺ في بيته وفي خلواته، وقديرة على تفهم ما لا تستطيع غيرها من النساء أن يتفهمن من تشريع لأحوال خاصة، ولهذا سجل الرواة كثيرًا من الأحاديث النبوية التي روتها، ودونوا كثيرًا من الأخبار التي وعتها ، واستند الفقهاء إلى آراء شتى نُقلت عنها ، ويمتد العمر بالسيدة عائشة بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في عبادة ورواية وسؤال وإجابة كما قلنا حتى مرضت مرضها الأخير، وتوفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء - على الأرجح - سبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين ، وهي في السادسة والستين من عمرها ودفنت بالبقيع مع باقي أمهات المؤمنين .

لقد كان زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة رضي الله عنها استجابة للصداقة ، ولحاجات البيت العظيم ، وكان فيه خير للإسلام وللمسلمين من رجال ونساء .

٤ - أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب[٣] :

كانت زوجة (خنيس بن حذافة) من بني سهم ، وهو أحد المسلمين القلائل الذين شهدوا غزوة بدر ومات بعد الموقعة بقليل

---

(١) الطبقات : ٨/ ٥٠ .

(٢) الإحياء للغزالي : ٣/ ١٠٩ ، ودلائل النبوة للبيهقي .

(٣) الاستيعاب : ٤/ ١٨١١ ، والإصابة : ٨/ ٥٢ ، وأسد الغابة: ٥/ ٤٢٥ .

وترك من بعده حفصة أرملة في سن الثامنة عشرة ولم تكن على شئ من الجمال ، وكانت قد جدت ظروف بعد موقعة بدر شعر المسلمون فيها بأن كثرة الغزوات قد ترتب عليها قلة عدد الرجال بينما يزيد عدد الأرامل بعد سقوط أزواجهن في هذه المعارك ، فعمدوا إلى مبدأ تعدد الزوجات ليحمل كل أخ عن أخيه المسلم شيئًا من أعباء تركته فيصون زوجته من الترمل والوحشة ، ويعصمها من الفتنة أو المذلة ، ويدفع عنها الحاجة ، لا بصدقة تأباها ، أو تهدر قدرها ، بل بزواج يقيم ظهرها ويرفع رأسها[١] .
وعلى هذا الأساس ذهب عمر - والد الأرملة الشابة - يعرض زواج ابنته على صديقه أبي بكر أولاً ، فلما لم يجد لديه قبولاً ، اتجه إلى عثمان بن عفان فلم يقبل عثمان هذا الزواج[٢] . وأدرك عمر أنه جرح من صاحبيه ، وتلقى منهما لطمة عنيفة زلزلت كيانه، فذهب إلى الرسول يبث إليه حزنه ، ويرفع شكايته من أقرب الناس إليه . وأدرك رسول الله أنه لا شفاء لنفس عمر إلا بأن تتزوج ابنته رجلاً خيرًا من أبي بكر ومن عثمان ، فمن يا ترى يكون هذا الرجل ؟ لن يكون سوى رسول الله ، وكأنه أراد بذلك أن يسوي بين صاحبيه الكبيرين أبي بكر وعمر في الأصهار إليه ، فوق ما صنع من مواساة لعمر ورد اعتبار ابنته .

فهذا الزواج إذًا ضرب من الحفاظ الشديد على صفاء الصلات التي بين الإخوة المقربين إلى النبي ﷺ والذين يؤازرونه في نشر

(١) وا محمداه : نظمي لوقا ص ١١٦ .
(٢) عبقرية محمد للعقاد : ص ٢٠٣ .

الدعوة ، وهو تكريم لعمر كما كان زواج عائشة تكريمًا لأبي بكر .

ومن ذا الذي يحظر على الرئيس الأكبر والقائد الأعلى أن يحرص على الصفاء بين أتباعه المخلصين ، وأن يسوي بينهم في التقريب والتكريم ؟

وليس أدل على أن زواج النبي ﷺ بحفصة تشريف لعمر من أن عمر حين علم أن رسول الله ﷺ طلق حفصة لما أفشت سرًا لرسول الله ﷺ حثا التراب على رأسه ، وقال : ما يعبأ الله بعمر وابنته بعد هذا . ولم تطل الأزمة ، ولم يهدأ عمر إلا بعدما استيقن أن رسول الله ﷺ راجع حفصة ، فقد أمر الله رسوله أن يراجع حفصة ، ونزل جبريل عليه السلام ليقول له : « راجع حفصة فإنها صوامة قوامة »[1] . وظلت كذلك حتى ماتت رضي الله عنها في عهد معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالبقيع .

على أن هذا الزواج تكريم لحفصة نفسها ، وتعويض عن زوجها الذي فقدته في غزوة بدر ، ومواساة عالية .

٥ - أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة المخزومية[2] :

تزوجها النبي ﷺ سنة اثنتين من الهجرة بعد غزوة بدر ،

(١) كان الرسول الكريم ﷺ يسع نساءه بحلمه وفضله لأنه كان يعرف طبائع النساء ، وما خلقهن الله عليه ، فكان يصفح وكان يعفو ، ولكن إذا تجاوز ذلك الحدود ، كان يردهن بحزم إلى الطريق الصحيح ، وقد دفعت الغيرة (حفصة) أن أفشت سرًا لرسول الله ﷺ وهنا كان لابد من الحزم فطلق النبي حفصة ثم راجعها بأمر الوحي (وانظر (قبس من سيرة أمهات المؤمنين للمؤلف) .

(٢) الاستيعاب : ٤/ ١٩٢٠ ، ١٩٣٩ ، والإصابة ٨/ ٢٤٠ ، وأسد الغابة : ٥/ ٥٨٨ .

وكانت زوجة لأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم .
فلماذا تزوجها رسول الله ﷺ ؟

لقد كانت هذه السيدة من السابقات إلى الإسلام ، وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى الحبشة ، ثم عادا وهاجرا إلى المدينة، وشهد زوجها غزوة بدر ، وكان فارس القوم ، ثم اشترك في غزوة أحد ، فأصابه جرح مات منه .

كانت بين النبي ﷺ وأبي سلمة صلة أخرى حميمة ؛ لأنه ابن برة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، ولأنه أخوه من الرضاع . وكانت أم سلمة حينما مات زوجها كبيرة السن ، كثيرة الأولاد ، ولهذا لما خطبها أبو بكر وعمر بعد موت زوجها اعتذرت بكبر سنها وكثرة عيالها وغيرتها .

فرأى رسول الله ﷺ أن يرعاها بنفسه جزاء لها على ما قدمت هي وزوجها للإسلام،كما ترعى الدول المعاصرة أسر الشهداء بوسائل شتى من التكريم والتقديم والإيثار ، ورأى أن يواسيها وأن يتكفل بأبنائها ، وهو يرى حزنها شديدًا على زوجها ، فقال لها : « سلي الله أن يؤاجرك في مصيبتك ، وأن يخلفك خيرًا» .
فقالت: ومن يكون خيرًا من أبي سلمة ؟

فتزوجها النبي ﷺ ؛ لأنها تعلم أنه خير من أبي سلمة ، وكفلها وكفل أبناءها ، وزوج ابنها سلمة أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب التي كان يتنافس عليها علىٌ وجعفر وزيد .

وأم سلمة هي التي قالت للنبي ﷺ حينما خطبها : فىَّ (بتشديد الياء) خلال ثلاث : أنا كبيرة السن ، وأنا امرأة معيلة ،

وأنا امرأة شديدة الغيرة . فقال ﷺ لها : أنا أكبر منك سنًا ، وأما العيال فإلى الله ، وأما الغيرة فأدعو الله فيذهبها عنك .

وأم سلمة رضي الله عنها هي التي أشارت على رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية بالمشورة السديدة التي جمعت أمر المسلمين على طاعة نبيهم، فضربت بذلك مثلاً لرجاحة عقل الزوجة المسلمة وعاشت أم سلمة بعد موت الرسول ﷺ وتقدم بها العمر حتى امتحنت كما امتحن الإسلام بمذبحة كربلاء ومصرع الإمام الحسين ، وتوفيت بعدما جاءها نعي الحسين رضي الله عنه سنة تسع وخمسين للهجرة، ودفنت بالبقيع ، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين .

٦ - أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة[1] :

هي التي كانت تُدعى في الجاهلية أم المساكين ، وكانت زوجة للطفيل بن الحارث بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، أو زوجة لعبد الله بن جحش الذي استشهد يوم أحد ، ولم تكن ذات جمال أو صبا ، فقد تجاوزت سن الشباب . فلماذا تزوجها رسول الله ﷺ ؟ إنه لم يتزوجها إلا رعاية لها ، وحدبًا عليها ، وإشفاقًا على أبنائها ، وتعويضًا عن فقد زوجها في ميدان الجهاد ، وكان زواجه ﷺ بها سنة ثلاث من الهجرة، ولم تعش مع النبي ﷺ إلا شهرين أو ثلاثة أشهر ، ثم توفيت في حياة النبي ، ودفنت بالبقيع مع باقي أمهات المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة الهلالية ، أم المؤمنين وأم المساكين .

---

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٥٣ ، والإصابة : ٨/٩٤ ، وأسد الغابة : ٥/٤٦٦ .

٧ - أم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية[1] :

كان أبوها سيد بني المصطلق ، وقد جمع جموعًا كثيرة لمحاربة رسول الله ﷺ ، فلما التقى الجمعان في غزوة المريسيع أو غزوة بني المصطلق سنة خمس من الهجرة عرض رسول الله ﷺ عليهم الإسلام ، فأبوا ، فحاربهم وانتصر عليهم . حينئذ وقعت جويرية - وكان اسمها برة وكانت زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقي - في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من ذهب ، فلم تجدها ولم تجد معينًا لها غير رسول الله ﷺ ، فمضت إليه وقالت : يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من الأمر ما لم يخف عليك ، فوقعت في سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسي ، وجئت أستعينك . فقال لها النبي ﷺ : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : أقضي عنك كتابتك وأتزوجك . قالت: نعم . قال ﷺ : قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس ، وعلموا أن رسول الله ﷺ تزوج بنت الحارث ، فقال بعضهم لبعض : لقد صاروا أصهار رسول الله ﷺ ، ولا يصح أن تبقى سباياهم في ملكنا،وأطلقوا ما في أيديهم من سبايا بني المصطلق. لهذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لا نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية.وكان اسمها الأول برة فغيره النبي ﷺ إلى

(١) الاستيعاب : ٤/١٨٠٤ ، والإصابة : ٨/٤٣ ، وأسد الغابة : ٥/٤١٩، وسيرة ابن هشام : ٣/٣٠٧ ، وتاريخ الطبري : ٣/٦٦ .

جويرية . فلم يلبث بنو المصطلق أن أسلموا وأن صاروا في صفوف المدافعين عن الإسلام بعد أن كانوا في صفوف المعارضين له .

ومعنى هذا أن زواج النبي ﷺ بجويرية لم يكن إلا لخير الإسلام وقوة المسلمين والاستكثار من أنصار الدعوة .

٨ - **أم المؤمنين السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب**[1] :

اسمها رملة ، أسلمت على الرغم من أبيها ، وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة ، ولكن زوجها تنصر هنالك ، وأرادها أن تتابعه فأبت ، ففارقها ، ومات . فبم يكافئ النبي ﷺ امرأة أسلمت على الرغم من أبيها وهو من ألد أعداء النبي ﷺ وأقواهم ؟ بم يكافئ امرأة هاجرت من مكة إلى الحبشة فرارًا بإسلامها مستهينة بما تلقى من آلام الغربة والمخاطر والحاجة للحفاظ على دينها ؟ بم يكافئ امرأة تنصر زوجها وهما في الغربة وأرادها على أن تتنصر مثله فرفضت ففارقها وتخلى عنها ؟

ولم يجد النبي ﷺ مكافأة وحماية لها ، وإعزازًا لشأنها ، خيرًا من أن يتزوجها وهي بالحبشة سنة ست أو سبع من الهجرة ، ولينقذها من ضيق الغربة والوحدة والفقر ، لعله يتألف قلب أبيها أحد زعماء الشرك وأعداء الإسلام الألداء ، فأرسل ﷺ أحد أصحابه ليخطبها له ، ودفع النجاشي صداقها نيابة عنه ﷺ ، ثم أرسلها إلى المدينة المنورة ، وعلم أبو سفيان ما فعله الرسول ﷺ وهو زعيم قريش مع ابنته من تكريم لها ففرح بذلك ، وقال : نعم الزوج محمد . ولم تقدم من الحبشة إلا عام الهدنة مع خالد بن

---

(١) الاستيعاب : ١٩٢٩/٤ ، ١٨٤٣ ، والإصابة : ٨٤/٨ ، وأسد الغابة : ٥٧٣/٥ ، وسيرة ابن هشام : ٦/٤ .

سعيـد في العام السابع من الهـجرة يوم فتح خيبـر ، بعد أن ظلت بالحبشة زهاء خمسـة عشر عامًا ، قضت بعدها زهاء ثلاث سنوات في بيت النبوة بعـد زواجها بالنبي ﷺ ، وتوفـيت رضي الله عنها في خلافـة أخيـها معـاوية سنة أربع وأربعين ، وكان مـثواها أرض البقيع بجوار باقي أمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ[1] .

٩ - أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش بن رئاب ينتهي نسبها إلى أسد بن خزيمة[2] :

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية . زوّجه إياها أخوها أبو أحمـد بن جحش . وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه ، وهـي أول نسائه موتًا بعده ، ماتـت في أول خلافة عمر ، وهي التي زوجـها الله له في سنة خمس من الهـجرة وكان سنها خمسًا وثلاثين سنة ، وكانت صوامة قوامة ، ولما فتحت البلاد وأتاها عمر ما فُرض لهـا بكت وأعولت ودعت الله جل وعز أن لا يُريها عامًا قابلاً حتى تلقى رسول الـله ﷺ على ما فارقته عليه من حياة التقشف في بيته ﷺ ، فماتت قبل تمام العام .

والسيدة زينب هي ابنة عـمة رسول الله ﷺ أميمـة بنت عبد المطلب ، ولزواج النبي ﷺ منها قصة : فقد كان من عادات العرب الشائعة في الجاهلـية أنهم يتخذون لأنفسهم أبناء أدعيـاء يلصقونهم بأنسـابهم، ويعطونهم جـمـيع حـقـوق الأبناء حـتى في المواريث ومحرمـات النكاح ، ولما أراد الله أن يبطل عادة التبني أمـر رسوله

(١) وانظر كتاب (قبس من سيرة أمهات المؤمنين للمؤلف) : ص ١٥٢ .

(٢) سيـرة ابن هشام : ٢٩٨/٤ ، والاسـتيعـاب : ١٨٤٩/٤ ، والإصابة : ٩٢/٨ ، وأسد الغابة : ٤٦٣/٥ .

ﷺ أن يزوج زينب بنت جحش الأسدية لزيد بن حارثة مولاه ومتبناه[1] ، والله سبحانه يعلم أنهما لا يتفقان على بقاء هذه الزوجية بسبب التفاوت في المكانة ، والاختلاف في النسب ، فأرسل النبي ﷺ إلى زينب وقال لها : « إني أريد أن أزوجك زيد ابن حارثة ، فإني قد رضيته لك » . قالت : يا رسول الله ، لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا أيم قومي ، وبنت عمتك فلم أكن لأفعل . فنزلت الآية ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، فقالت زينب للنبي ﷺ بعد نزول هذه الآية ، قد أطعتك فاصنع ما شئت . فزوجها زيدًا ودخل عليها ، فكانت بعد الزواج تُغلظ له القول ، وتتعاظم عليه بالشرف والمنزلة ، فيذهب إلى النبي ﷺ شاكيًا منها ، ويستأذنه في طلاقها فيقول له النبي ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . وهو يعلم أنه لابد له من طلاقها ، وأن الله سيأمره بالزواج منها بعد زيد لإبطال بدعة التبني ، وتجويزًا لنكاح أولاد الأدعياء . ولكنه ﷺ لم يكن يُظهر هذا لزيد ولا لغيره ، وكان يدور بخلده دائمًا مقالة قريش في الخروج على العادات والتقاليد كلما شكا زيد من عجزه عن العيش مع زينب وخشية أن يقولوا : إن محمدًا تزوج امرأة ابنه

---

(١) كان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة لاختياره في جواره على أبيه وأهله، فلما رأى رسول الله ذلك أعتقه ، وأخرجه إلى الحجر فقال : اشهدوا أن زيدًا ابني يرثني وأرثه ، فكان يُدعى بعد هذا التبني بزيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام « ادعوهم لآباءهم . . . » فأبطل هذه العادة .

المتبنى، فأنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] . فهو عتاب على ترك الأولى به ﷺ . فلما طلقها زيد بمحض اختياره وإرادته زوجه الله إياها بدون عقد ومهر وشهود ، وهو من خصوصياته ﷺ ، وفي هذا نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ثم عللت الآية هذا الزواج فقالت: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾. وبعد نزول هذه الآيات التشريعية بطلت عادة التبني وحل الزواج بزوجات الأدعياء . ويتلخص مما تقدم أن زواج رسول الله ﷺ بزينب الأسدية كان لغرض تشريعي، وغاية اجتماعية ألا وهي إبطال عادة التبني عند العرب .

١٠ - أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير[2] :

يهودية تزوجها اثنان يهوديان أولهما : سلام بن مشكم ، وثانيهما : كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . وقد وقعت في السبايا في غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة، فطلب دحية الكلبي من رسول الله جارية من السبايا، فقال ﷺ له : اذهب فخذ جارية . فأخذ صفية حينئذ جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنها

(١) وطراً : أي حاجة ، وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدتها .
(٢) الاستيعاب :٤/ ١٨٧١، والإصابة : ٨/ ١٢٦ ، وأسد الغابة : ٥/ ٤٩٠، وسيرة ابن هشام : ٣/ ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ .

بنت سيد بني قريظة وبني النضير ، فما تصلح إلا لك . فقال النبي ﷺ لدحية : خذ جارية من السبايا غيرها . وخيرها رسول الله بين أن يعيدها إلى قومها، وأن يعتقها ويتزوجها، فاختارت الزواج منه ﷺ . وكانت قد رأت في المنام وهي زوجة لكنانة أن قمرًا وقع في حجرها ، فقصت رؤياها على كنانة ، فقال لها : لا تأويل لهذا إلا أنك تتمنين الزواج من ملك الحجاز محمد، ولطم وجهها لطمة خضرت عينيها ، فلما جاءوا بها إلى رسول الله ﷺ رأى الأثر بعينيها ، فسألها : ما هو ؟ فأخبرته هذا الخبر . فأي حرج على النبي ﷺ في أن يؤوي إلى حماه سبيًا هي بنت سيد قومه ؟

كان رسول الله في هذه الفترة قد قربت سنه من الستين ، وبعدت من إنسانيته عوامل الشهوة الجامحة فلم يرد أن يبقي صفية أمة يملكها للمتاع والتجارة ، وإنما أراد أن يضرب المثل في بلوغه حد الكمال الإنساني في معاملة الأعزاء الذين ذلوا بعد عز ، وهانوا بعد منعة ومجد ؛ ليحلق بعقول أصحابه في آفاق عليا من المعاملة الكريمة للمستضعفين الذين سقطوا من علياء ماضيهم إلى حضيض حاضرهم بين يدي قوم يقدرون الجانب الإنساني ، ويضربون المثل العالي في بلوغهم الغاية في التهذيب الخلقي فيستلون بتلك المعاملة سخائم القلوب ، وبغضاء النفوس القديمة ، فلا يسع الخصوم إلا أن ينحنوا راكعين أمام إحسان القادر على الانتقام من المسيء .

كان نساء النبي ينظرن إلى صفية من زاوية الكبرياء العربي نظرتهن إلى يهودية أسيرة ، فكان رسول الله ﷺ يلقن نساءه (بنات أصحابه وأصفيائه) درسًا في الأدب العالي عن طريق صفية هذه فيقول لها : ألا قلت لعائشة وحفصة : وكيف تكونان خيرًا مني ،

وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى[١] . وقد كانت مشهورة بالحكمة والعقل والفضل .

١١ - أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية[٢] :

لهذه السيدة صلات بكثير من أشراف العرب ، وذلك أن لها أخوات شقيقات هن : أم الفضل لبابة الكبرى زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبي ، ولبابة الصغرى زوجة الوليد بن المغيرة أم خالد بن الوليد ، وعصماء زوجة أبيٍّ بن خلف الجمحي ، وعزة زوجة زيادة بن عبد الله الهلالي. ولها أخوات لأمها ، هن : أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب، وسلمى بنت عميس زوجة حمزة بن عبد المطلب ، وسلامة بنت عميس زوجة عبد الله بن كعب بن منبه الخثعمي . فما السبب في زواج رسول الله ﷺ بها ؟

مات زوجها الثاني ، فلقي العباس بن عبد المطلب النبي ﷺ وهو يعتمر عمرة القضاء ، وقال له : يا رسول الله تأيمت ميمونة بنت الحارث ، فهل لك في أن تتزوجها ؟ فقبل رسول الله ﷺ .

وفي خبر آخر : أنه لما فرغ النبي ﷺ من خيبر وتوجه إلى مكة سنة سبع من الهجرة، وقدم عليه جعفر بن أبي طالب من الحبشة خطب له جعفر ميمونة بنت الحارث، فأجابت ، وجعلت أمرها إلى العباس، فزوجها النبي ﷺ ، ولم يكن في هذه السيدة ما يُغري

(١) وا محمداه : نظمي لوقا ص ١٢٤ ، وانظر عبقرية محمد للعقاد ص ٢٠٤ ، والقصة كما روتها كتب السيرة : أن النبي ﷺ دخل عليها يوما وهي تبكي ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني وتقولان : نحن خير من صفية ؛ لأننا بنات عم النبي وأزواجه . فقال لها ﷺ : ألا قلت : كيف تكن خيرا مني ، وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد .

(٢) الاستيعاب : ٤/١٩١٥ ، والإصابة: ٨/١٩٢، وأسد الغابة: ٥/ ٥٥٠ .

لأنها امرأة ثيب تزوجت مرتين. وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] . فلم يكن كرم أخلاقه ﷺ ليتغاضى عن رغبة حبيبيه عمه وابن عمه جعفر ، ولا ليبخس امرأة وهبت نفسها له ، ولا ليسد الطريق أمام أمل في تقوية الإسلام والمسلمين ، فتزوجها وكان اسمها برَّة فسماها ميمونة إذ كان زواجه بها في المبايعة الميمونة الغراء التي دخل فيها أم القرى لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين محلقين لا يخافون ، وكانت ميمونة آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، وبنى بها رسول الله ﷺ بعد عمرة القضاء ، بموضع يقال له (سرِف) بضواحي مكة والمذكورات هن النسوة اللاتي تزوجهن رسول الله ﷺ ذكرناهن تفصيلاً لا إجمالاً . وأما السراري[١] فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية ، وريحانة بنت زيد القرظية أو النضرية .

★ الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ (خلاصة ما سبق في سطور) ★

* من كل ما تقدم يتبين بوضوح لذوي العقول والبصائر أن زواج النبي ﷺ بأمهات المؤمنين كان للدين لا للدنيا ، وكان للحكمة لا للهوى ، ولتوطيد الدعوة ونشرها ، وتقويتها ولم يكن

(١) جمع سرية : الجارية التي يتسرى بها مالكها ، وإن ولدت تكون أم ولد فلا يحل بيعها كأم إبراهيم .

لمجرد الرغبة في متعة فانية أو شهوة زائلة ، وإنما كان من أجل مقاصد شريفة ، وغايات شريفة ودوافع كريمة ؛ فقد ابتغى ﷺ من زواجه بالسيدة خديجة رضي الله عنها ما يبتغيه كل إنسان ، وما ابتغاه كل رسول من قبل : أن يكون له بيت وزوجة وأبناء ، وقد تزوج خديجة بعد رغبتها في الزواج منه لتكون قاعدة دعوته ، وأمينة سره ، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به ، وحلوكة الأيام والليالي عليه ، ثم ابتغى من الزواج بعد وفاتها الخير للإسلام والمسلمين ، وذلك أنه كان يعمد حينًا إلى أن يزيد القريب إلى قلبه قرابة ، وأن يضيف إلى حبيبه محبة ، وإلى أليفه أُلفة ، وإلى المخلص لله ورسوله ﷺ إخلاصًا ، فتزوج السيدة عائشة رضي الله عنها ولم يتزوج بكرًا قط غيرها ، وكان زواجه بها إكرامًا لوالدها الصديق الوفي والأخ الصادق الأخوة الذي آزره منذ اللحظات الأولى في دعوته وحمل رسالته ، وتزوج أم حبيبة وأم سلمة وسودة وميمونة وأم المساكين زينب بنت خزيمة وهن أرامل مرملات إيواءً لهن لما فقدن أزواجهن ، ولما أصابهن من عذاب واضطهاد في ذات الله تعالى ، وزوجه ربه تبارك وتعالى زينب بنت جحش وهو كاره لذلك خاشٍ من أن يقول الناس : تزوج محمد امرأة زيد الذي تبناه ، وإنما كان هذا الزواج بأمر الله ليبطل عادة جاهلية تأصلت في النفوس دون أن يكون لها ما يبررها ، وتزوج حفصة بنت عمر إكرامًا لعمر وتحقيقًا لرغبته في أن تكون بنته في بيت النبوة الطاهر وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين ، وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه ، وقد أعز الله به الإسلام ، فمن يكرم إذًا ؟ وتزوج صفية وجويرية مسحًا لدموعهما وإذهابًا لحزنهما لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما ، وإنما أراد ﷺ أن يضرب المثل في بلوغه حد

الكمال الإنساني في معاملة الأعزاء الذين ذلوا بعد عز ، وهانوا بعد منعة ومجد ، فيستل بتلك المعاملة الحسنة سخائم القلوب ، وبغضاء النفوس ، فلا يسع الخصوم إلا أن ينحنوا راكعين أمام إحسان القادر على الانتقام من المسيء ، فهو يريد أن تخفف المصاهرة من حدة العدو وحنقه لعله يرعوي أو يزدجر . وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله ، ولا بدون إذن من الله ورضاه .

* وليس من شك في أن زوجات رسول الله ﷺ رفدن الإسلام بكثير من الحقائق الوثيقة الصلة بالدين ، فمثلاهن اللاتي أخبرن بسلوك النبي ﷺ وبأعماله التي لم يرها غير زوجاته ، وهن اللاتي كن منابع التشريع المستنبط من أحوال نسوية لا يعرفها غير النساء ، ولا يعلمها إلا أزواجهن ، وبعضها يختلف من امرأة إلى أخرى ، وهن اللاتي روين أحاديثه الشريفة التي قالها في بيته ، ولم يسمعها غيرهن ، وصححن رواية بعضها التي سمعها غيرهن، ولبعضهن آراء في الفقه ، وفي أسباب نزول بعض الآيات القرآنية الكريمة ، ولا عجب في هذا فقد كن حريصات أشد الحرص على الرواية عن رسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٤] وعملاً بقوله ﷺ « **نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** » . ولهذا روى الثقات عنهن مئات الأحاديث .

* بقي الدافع الأخير لزواج النبي ﷺ من نساء كثيرات والجمع بينهن وهو من خصوصياته ﷺ ومن وراء هذا الدافع تظهر الحكمة الكامنة في معاملة رسول الله ﷺ لمجموعة كبيرة من نسائه بالعدل الكامل والإحسان النادر مع اختلاف طباعهن وأساليب حياتهن ، ومواطن إقامتهن ، وطريقة تربيتهن ، فإنه عليه الصلاة

والسلام ضرب المثل العملي للمسلمين في كيفية معاملة الزوجة ، ونُقل عنه عليه الصلاة والسلام صورة واضحة للأسلوب العالي الذي ينبغي أن يعامل به أهل بيت الرجل ومن في حوزته من النساء ولو كانت الزوجة مكروهة فاقدة الحظوة عند زوجها في قوله تعالى **﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا ﴾** كما أعلن رسول الله لأمته أن خيار المسلمين خيارهم لنسائهم فقال : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ، وخياركم خياركم لنسائهم** » . . . هذه بعض تعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن وروتها لنا الأحاديث ، وهي التي فرضها على المسلمين عامة في معاملاتهم لزوجاتهم ، وهذه المعاملة التي أوجبها على أمته كانت دون ما أوجبه على نفسه في معاملته لزوجاته بكثير . . . وكان هذا الزوج المثالي يتولى خدمة البيت مع نسائه ويقول «خدمتك زوجتك صدقة » ، وكان ﷺ يشفق على زوجاته جميعًا أن يرينه غير باسم في وجوههن، كما كان يزورهن في الصباح وفي المساء ، ولقد وصفته السيدة عائشة بقولها : (كان ألين الناس ، ضحاكًا بسامًا) . وكان يسوي بينهن حتى في النظرة ﷺ .

من هذا يتضح أن رسول الله كان يتحرى العدل كل العدل بين زوجاته ويعطي كل واحدة منهن قدرًا مساويًا من عنايته وحسن معاملته ، وحين كان يجد أن إحداهن لها في قلبه مكان أعلى من الأخريات كان يقول لربه بعد ما يؤدي فراض العدل والمساواة الكاملة بينهن : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ». فأي عقل راجح هذا الذي استطاع أن يسوس نساء تسعًا في عصمته ؟ وأي عدل هذا الذي أمكن رسول الله أن يطبقه في بيت به هذا العدد من النساء ، فهذه تجربة تعلن أن رسول الله كان أرجح الرجال عقلاً ، وأحسن الأزواج معاملة ، وأكرم الناس

خُلقًا ؛ لأنه رسول الله ومثال الإنسانية الكامل . هذا الرجل وهذا النبي ، كان معروفًا من صباه إلى كهولته أنه لم تحمله صولة الشباب ، ولا ميعة الصبا على الاستسلام - مرة واحدة - للذات الحس ، ولم يُسمع عنه أنه عكف على اللهو كما يلهو الفتيان من أقرانه في مجالس اللهو التي كانت منتشرة إذ ذاك في نواحي مكة وفي أوساطها المختلفة ، بل إن اللهو البرئ لم يتخذ طريقه إلى نفس محمد عليه الصلاة والسلام ومن هذا المسلك الكريم عُرف بالطهر والأمانة ، واشتهر بالجد والرصانة وسداد الرأي ، فلما قام بالدعوة لم يقل أحد من أعدائه المتربصين به الذين يتصيدون له كل نقيصة ،لم يقل أحد من هؤلاء: أن هذا الفتى الذي يدعوكم إلى نبذ الشهوات ويحثكم على الطهارة والعفة كان من شأنه حب الشهوات والرغبة العارمة في النساء ، لم يقل أحد من خصومه والحاقدين عليه شيئًا من هذا أبدًا ، ولو كان هناك موضع لقول في هذا الاتجاه لانتشر على كل لسان . أفبعد هذا البيان يبقى هناك وجه من وجوه الطعن يوجه إلى رسول الله من ناحية زواجه بكل واحدة من أمهات المؤمنين ؟ ألا قاتل الله الطاعنين في الكمال المحمدي ، وقطع ألسنة الجاهلين ببغاوات أعداء الإسلام الذين يهرفون بما لا يعرفون .

تمت بحمد الله تعالى وتوفيقه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

